حسن فالح

حدائق الصمغ

مدونة ابو عبدو

براءات المتوسط

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط - إيطاليا.**

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهًة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Hadae'q Al-S'amegh *by* "Hasan Falih"
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books.**

المؤلف: حسن فالح / عنوان الكتاب: حدائق الصمغ
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
صورة الغلاف: ماثيلد آوبور / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-11-6

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

حسن فالح

حدائق الصمغ

مَنْ يربطُ شريطَ حذائي ..

أعبثُ بأنفي، أشاهدُ الأخبار، أطَّلعُ على عداد الوفيات والولادات، أغنّي الأغنيّات القديمة، أتمدّد حيث يعيشُ الجميعُ بخوف، وأُقنعُ نفسي بأن الأمور ستؤول إلى أفضل ممّا هي عليه، بينما يحاول البقيّةُ الحصولَ على تذكرة لمغادرة المكان، إلى أيّ مكان آخر. كان على الجميع أن يتبخّروا بدعوة الهُرُوب من حبيبةٍ غاضبةٍ. لكني اقتنعتُ أن أُحبَّ امرأةً بساقٍ واحدة، تعيشُ راكبةً درّاجتَها الهوائيَّةَ.

اعتدتُ صُحبتَهَا لتناوُل الوجباتِ السريعةِ في مطعم التحرير المعروف بوجباتِهِ البائتة، كانت تقودُ درّاجَتَهَا بساقٍ واحدة، بينما أتشبّثُ بها من الخلف، وعندما طلبتُ منها أن نتناول وجبتَنا الأخيرةَ في مطعم المُلُوك المجاور إلى مَطعمِها المُفضّل البائت، أخبرتْني أنها تُفضِّل ذائقةَ العناوين أكثرَ من ذائقةِ الطعام ذاته.

كنتُ أنزُّ الماءَ من مسامي عندما أتلمّظ تلك الأكلاتِ التي كانت تلتهمُها هي أمامي، بشراهةٍ غير مشهودة. كانت كلّ الحَوْل، ولا حولَ لي، ولا قوّة أمام ساقِها الواحدة التي كلّما أكلتْ من هذا المطعم كانت تكبُرُ بشكل غير طبيعي، وكأنها منذورة لقَدَرٍ عظيم، ما جَعَلَهَا حافيةً، فلم يكنْ ثمّة حذاء على مقاسِها، حتّى إن دوّاسة درّاجتِهَا لم تعدْ تَسَعُ حجم قَدَمِهَا الكبيرة.

كلّ ما بوسعي فعْله هو التّشبّث بها، والتّنفّس عبر خصلات شعرها المتطاير على وجهي عند قيادتِها بسرعةٍ جنونيةٍ، وكأنها في حلبةِ سباقٍ، ولم تكنْ ساقُها المقطوعةُ تُشكِّلُ أيَّ عيب لها، ولا للناس الذين انشغلوا بمفاتِنِهَا وطَلْعَتِهَا البَهيّة عند مُرُورها بهم، لكنهم كانوا يحسدونني على تشبُّثي بها. وكانت تسألُني وهي تضحكُ عن معنى قسمات الناس المرسومة على وُجُوههم؟ فأُجيبُها؛ أنهم يتحضَّرون لمُشاهدتي وأنا أُزِرُّ خصرَكِ بذراعَيَّ. ثمّ نضحكُ بصوت عالٍ، وهي تضغطُ دوّاسة درّاجتِهَا، فنمضي بسرعة جُنُونية.

لائحةُ أحلامي ..

دائماً ما أفكِّر أنّ قَدَري بطلُ فيلم هذه الحياة، وأن البطلّ في النهاية لا يموتُ، بينما أنا اليوم في منتصف الثلاثينات من عمري، أرغبُ في تدوين لائحةٍ أحلامي، بطريقةٍ استعراضيةٍ، أوّلها؛ العيشُ بمدينة ميكانيكيّة، بقُرب امرأة، لها رقبة ممشوقة مثل مآذن العبّاسيين القديمة، وساقان رومانيّتان شفّافتان مثل الكريستال، وغمّازاتان، تشرب منهما الطُّيُور، وصوتٌ دبقٌ، كلّما نادتْني شعرتُ أنها تسحبُني بدَبَقِهَا. وجبلٌ من ورقٍ، نكتبه معاً، أو نحرقُهُ، أو نصنعُ منه قواربَ ورقيّة، نُلقيها في تِيهِ دجلة، علَّها تصلُ إلى ما لم نصلْ إليه، امرأةٍ أشعرُ أمامها أنني مخلوقٌ من قَهْر وهي من شِعْر.

لائحتي طويلة، لا يمكن أن أكتبَ آخرها وأنا أنظر إلى ساق حبيبتي الواحدة الضخمة، وحدَها ساقُها مَنْ كانت تُخيفني. وكانت دائماً ما تُخبرني، عندما أضعُ قَدَمي على درّاجتِها، لتربطَ لي شريطَ حذائي المفكوك، أنّ ساقَها الضخمةَ هديةُ الله لها، فبعد أن فَقَدَتْ ساقَها، لم تعدْ تستطيع قيادةَ درَّاجتها بساقٍ واحدةٍ، من غيرِ أن تكون هذه الساقُ

بحجمٍ كبير، يُعوِّضُ لها خسارتَها التي حدَّثتْني عنها في أوّل لقاءٍ بيننا. ولم تكنْ تعرفُ أين صارت ساقُها المقطوعةُ. السيقان غير مهمّة عند حُدُوث الانفجارات، لم يكن ثمّة شيء أهمّ من الرُّؤُوس، مَنْ يدري؟ قد تكون ساقُها فوق سطح بناية، أو قد تكون مُعلَّقة بخطاف جزّار، يتكدّس الذباب على بوّابة محلّه، أو أنها صارت حساءً لمتسوّل، لم يجد ما يأكلُه سوى تلك الساق.

تعوَّدتُ أن أبتسمَ وأنا أراها تصنعُ من شريط حذائي شكلَ وردة، وأحْدَوْدِبَ حزناً عندما تحدّثني عن خسارتِها المبتورة، وكم اشتاقتْ إلى شُعُور القيادة بساقَيْن، وكم عانت في تعلُّم التوازن، وإمالة جسدها ناحية الساق المبتورة حتّى تكسبَ توازنها في القيادة، وأخبرتْني ذات مرّة عن والدتها عندما هجرتْ والدَها، وكيف تحوّلتْ في يوم ما إلى درّاجة هوائية، وتجوّلت الكرة الأرضيّة بعَجَلَتَيْن، من غير أن يقودَها شخصٌ، وأنها ترجو أيضاً التّحوّل مثل والدتها، لكنّها هذه المرّة طَلَبَتْ منّي قيادتها، ثمّ مجَّت كَمّيّة كَبيرة من الهواء، وزَفَرَتْهُ دفعةً واحدةً، وهي تتحدّث عن أخويها اللّذين تمّ نَقْل جُثمانَيْهما إلى الطّبّ العَدْلي، وعن والدها وهو يتفاصلُ مع الموظّف المسؤول عن تسليم الجثامين. أخبرتْني أن والدها لم يكن يملك المال الكافي لاستلام أخويها، فأخذ واحداً، وبعد مدّة، رجع ليستلم الثاني، لكنه لم يعثر عليه، كان قد اختفى، أخبره الموظف المسؤول؛ أن جثّة ولده يمكن أن تكون قد نُقلت مع الجثث المجهولة الهوية، ليتمّ مواراتها جميعاً في حفرة كبيرة، وبعدها لم يتردّد موظّفو الطّبّ العدلي في إيجاد مكان لوالدها داخلَ ثلاجة الموتى، لأنه كان قد ماتَ عند سماعه بخبر جثّة ولده المختفية.

مَن يدري؟ ربّما نقلوا جثّته الآن، ليُوارُوها مع الجثث المجهولة الهوية في إحدى الحفر.

حصانها الحديدي ..

ثمّ سألتني عن سببِ ابتسامتي لها، فأخبرتُها؛ منذ عشرين عاماً، وأنا لم أربط شريط حذائي، لأن والدتي المتوفّاة هي مَنْ كانت تربطُهُ لي، وكنتُ أبتسم تلك الابتسامة الأولى، كما أبتسمُها اليوم، وأنا أشعر بذات الدغدغة فوقَ لسان حذائي. قلتُ هذا، بينما استغرقتْ هي في نومِها مُتَّكئةً على جدار بيت قديم، كان يقعُ وسط الحيّ الذي نقطُنُهُ.

كانت تنام على حصانِها الحديديّ، تأكلُ، تشربُ، تحلمُ، تغنّي، تسمعُ، تغسلُ، تحدِّقُ بالأشياء بطريقة متنقّلة. وتنطّ بعجيرتها عندما تواجهُ مطبّات الشوارع، متحاشيةً بذلك ملامسةَ قَدَمها الوحيدة الأرض. ودائماً ما كنتُ أساعدُها من الخلف وأنا أتشبّثُ بها، لا تفهموني كما يُخيَّل لكم، أقصد أني كنتُ ألكز عجيرتها المكتنزة، فتفهم هي إشارتي هذه، فتعود إلى مقعدِها مرّة ثانية. كانت تستعينُ بالجدران، وأعمدة الكهرباء، وواجهات البنايات، لتتّكئ عليها عندما تتوقّف لأَخْذ استراحة. وكان بعضُ الصبية يُنادونها بسيلفر، جاءت هذه الكنيةُ متزامنةً مع عرضِ المسلسلِ الكارتونيّ جزيرة الكنز، وبطلها القرصان جون سيلفر ذات الساق الواحدة. ولم يكن يهمّها ذلك، بل كانت تبتسمُ، وتقولُ؛ أنا في النهاية لستُ سوى وراثةِ ما أنا عليه. وكلّ ما يقال يمرّ مثلَ كذبةِ الكذّاب.

كنتُ أشاهد ساقَهَا تكبرُ يوماً بعد يوم، كانت تكبرُ مثل إشاعة، ولم يكنْ ثمّة شيء، يمنعُها من أن تبتسمَ، لم أعرف سرّ تلك الابتسامة رغمَ كلّ خساراتها التي مرَّتْ بها. ولم تغادرْها فكرةُ أن تتحوّل إلى درّاجةٍ هوائية مثل والدتها، قالت إن طولَ بقائها على درّاجتها سيُساعدها أن تتوحّد معها، فقد أمضتْ والدتُها سنواتٍ طويلةً حتّى تحوّلت إلى درّاجة هوائية، وها

هي ترغبُ بالتّوحّد في محاولة السفر حول العالم. ثمّ قالتْ بشرط رُكُوبي لها. باختصار غائيّتها، كنتُ أبتسم لها كلّما كانت تقول لي ذلك، وأترجم جملتها هذه إلى غير معناها المقصود. أو يمكنُ قد يكون تعاطفاً منّي في استبدال المعاني معانٍ أكثرَ نظافةً، تليق بما هي عليه.

أتذكّر الآن كيف كنا نتسكّع، وكيف أرصُّ أصيص الأزهار في سلّة درّاجتها الهوائية، كانت تُربكني برقّتها، وكلّ ما بوسعي فعْله هو أن أُصغي إليها، وهي تدفعُ الهواءَ بساقِها المقطوعةِ، وتضغط بالأخرى محاولة الإسراع، وأنا أتعلّق بها مثل بتلةِ زُهيرة خائفة. وذات يوم، كعادتِنا في ذرعِ شوارع الحيّ، وحين تَشَبُّثي بها، اضطربتْ أصابعي عندما تحسّستُ نتوءَيْن بارزَيْن على جانبَي كتفَيْها. فرحتُ أمطّ رقبتي في محاولة منّي، لأرى ما يمكن أن أراه وأنا أنيطُ شريطَ ستيانها من خلف قميصِها الشيفون، لكنها فاجأتْني بضحكةٍ عالية. وهي تُخبرني؛ لا تخفْ، إنهما جناحان، في بداية نُمُوّهما. ومع أني لم أكدْ أعرف ما أقول أو أفعل، لكني سألتُها: ولمَ هذان الجناحان؟ فأخبرتْني؛ أنها لم تعدْ مقتنعة بفكرة الأرض. ولعل والدتها ستحسدُها الآن، لأنها ستُكمل ما بدأتْه هي في مكان آخر.

انتهت تلك الليلة، وازدانت السماءُ بلونٍ برتقاليّ في أوّل الشُّرُوق، وأنا في طريق العودة إلى البيت، وعلى الرغم من القَلَق الذي كان يَعتريني، بذلتُ ما بوسعي لأفهمَ حقيقةِ ما يجري، وفكّرتُ إلى أين يُمكنها أن تُحلِّق بجناحَيْها وحصانِها الحديديّ، ثمّ شعرتُ أن عليَّ أن أُصدّق هذه القصّة من دون استفهام، وبعد أيّام من آخر لقاء بيننا، سمعتُ من بعض المارّة أذنابَ حديث عن فتاةٍ طارتْ إلى السماء، ثمّ تأكّدتُ من صحّة هذه القصّة من أهل الحيّ، وهم يتداولون قصّة الفتاة ذات الساق المقطوعة، وهي تُصفِّق بجناحَيْها، وتتلاشى في السماء مع درّاجتها الهوائية.

تذكّرتُ كيف كانت تطلبُ منّي مراراً وتكراراً أن أقودَها عندما تتحوّل إلى درّاجة هوائية، لكنها اليوم اختفتْ، وهي غيرُ مُلزَمَة بوعدِها، لأنها صارتْ بجناحَيْن، وعدتُ أنا إلى مطعم التحرير، مطعمِها المفضَّلِ، طلبتُ وجبةً بائتة، التهمتُها على مضضٍ، وأنا أشاهد شريطَ حذائيَ المفكوكَ.

عمّي الكيوية ..

لولا اهتمامي بالصور العارية، لما كان لي أيّ اهتمام بالكُتُب. بدأ الأمر عندما كنتُ في العاشرة من عمري، كنتُ أقضي بعضَ الوقت في مكتبة عمّي، أتصفّح بعض المصادر الفنّيّة المليئةِ بالصور العارية، وفي كلّ يوم كنتُ أجتزئ صورةً من الصور، واحدةً فقط، لكن الأمر كان يستغرقُ منّي وقتاً طويلاً، لأني كنتُ أحاولُ أن أحافظَ على حافة الصورة عند اجتزائِها، وعندما زادَ عددُ الصور، قرّرتُ أن أجمَعَهَا في صندوقٍ من الورقِ المقوّى (كرتونة)، هو ذات صندوق سراويلي القصيرة، والذي كان يقبعُ تحتَ سريري الحديدي، وخشية أن تجدَ والدتي الصور العارية، كنتُ أرزمُها مع بعضِها، حتّى تصبحَ بحجمٍ أصغر، ثمّ أدسَّها في جُيُوب سراويلي داخلَ الصندوق، وأطلّ عليها بين الفينة والفينة، لأطمئنّ على بقائها في مكانها.

كانت علاقتي بالصور أقوى من أيِّ علاقةٍ أخرى، أقوى من علاقة والدتي بتنّور الخبز، حتّى إني كنتُ أغار من عمّي على تلك الصور .. عمّي المحامي الذي لم أعرفْ حتّى الآن طبيعةَ علاقته بمثل هذه المصادر الفنّيّة .. ولمَ كان يجمَعُها؟ طوالَ فترة وُجُوده معنا في البيت، لم أرهُ يرسمُ نخلةً، أو حتّى قطّة. من الممكن أنه كان يستمني على تلك الصور، ورغم أن شيئي كان ينتصبُ، لكنني كنتُ أجهلُ كيفيةَ استخدامه، وأنا في العاشرة من عمري.

بعد عدّة أيّام لاحظتُ غضب عمّي، بالتأكيد أنه كان غاضباً من أجل

مصادره الفنّيّة الممزّقة، لكنه لم يجرؤ أن يسألَ عن الصور، وراح يُقفل بابَ غرفة المكتبة، عند ذهابِهِ إلى عمله، حاولتُ أن أجرّب فَتْحَ بابها بعد أن رأيتُهُ يُحضر العديدَ من المصادر الجديدة، ويرصّها إلى جانب القديمة الممزّقة، لكنني لم أُفلحْ في فَتْح الباب، لأنه كان يُقفل على كل شيء.

مسكين عمّي.. لم يكن لديه اهتمام سوى عملِهِ في المحكمة، وانسداحه على سريره قرب المكتبة، غارقاً في صفحات كُتُبه، ولم أعِ كيف كان بإمكانه قراءة كل تلك الكُتُب الخالية من الصور، كانت كلماتُه قليلة، وشكلُه رتيباً، لدرجة أنه لم يحاولْ أن يصبغَ شعرَهُ، بعدما خطَّهُ البياضُ في محاولة منه للحصول على زوجة جديدة، بعد أن توفّيت زوجتُه، ورفض أن يلقطَ شَعْرَ ذقنِهِ الذي تسلَّق عيناه، وبدا وجهه يُشبه قشرة الكيوي، حتّى إن ثيابه كانت قديمة، ولم يتأثّر بالموضة التي كانت تنتقلُ انتقالاً سريعاً من حيث تسريحات الشعر والثياب المستورَدَة. والتزمَ بربطة عنقِهِ الرمادية، ولم يُغيّرها أبداً. كان عمّي يرفض فكرة الزواج كلّما فاتحَهُ أبي في هذا الموضوع. وبدل أن يُقنعه أبي بضرورة الارتباط بامرأة، كان هو قد أقنعَ أبي بعدم فَتْح مثل هذا الموضوع مرّةً ثانية. وأضاف على كلامه: مَنْ ترضى برجلٍ يحمل وجه الكيوية. كنتُ أكره أَكْلَ الكيوي، لأنه يُشبه وجه عمّي.

قالت والدتي إنه كان يحبّ زوجته حباً جماً، وقد يكون هو هذا سبب عدم ارتباطه بزوجة ثانية، ولو كان لديه منها ولدٌ واحدٌ، لكان أفضل حالاً من بقائه وحده، قالت هذا بينما كانت منشغلةً قُربَ التنّور، تنّورها الحبيب. لكنني صمّمتُ على رأيٍ مخالفٍ لكلّ الآراء، وأقنعتُ نفسي أنه كان يفتقد الصور، تلك الصور التي اجتززتُها من مكانها، بالتأكيد هو يحاولُ الثأرَ لحُبيباته العاريات اللاتي خبّأتهنّ في صندوقي، كنّ يساعدنني

على الاشتعال في داخلي، ولا أعرف أي سبيل، لأُعالج به اشتعالي اللذيذ. كنتُ أختلي مع كرتونتي تحت السرير الحديدي، أنبشُ جُيُوب سراويلي الملوَّنة، لأستخرجَ صوري الطرية، وأروحَ ألهث تارة، وتارة أُقبِّلُ فُرُوجَ النساء المرسومات في الصور، وكم تمنَّيتُ أن تنهضَ تلك العاريةُ من رقادِها على الأريكة المكسوّة بقطعة من الموسلين، وتحشكُ جَسَدَها قربي تحت السرير. العُري كان يُثيرني، لدرجةِ أني لم أهتمّ لنظرات والدتي وهي ترقبُني عن كثب، بينما كنتُ منشغلاً في تقبيل تلك الفُرُوج. كانت غاضبةً وخائفةً في الوقت ذاته، إلى درجة أنها جدعتْ تلك الصور بقوّة من بين يدي وفمي المنشغل بالتقبيل واللهث، ورمتْها على الأرض، ثمّ لملمتْها، وأنا أسمعُ زفراتها من أسفل السرير، وما زاد خوفي هو عدم طَلَبها منّي الخُرُوج، لتسألني عن الصور. كنتُ أرى قَدَمَيْها، وهي تقف بالقُرب منّي، وشاهدتُهما تغادرانني إلى حيث تنّورها كما تعوّدتْ، فأسدلتُ ملاءةَ السرير على حافته، ومكثتُ تحته عدّة أيّام.

كانت تُحضر الطعامَ لي وأنا لا أزال قابعاً تحت السرير، ورغم ذلك لم تطلبْ منّي الظُّهُور. وعندما كان يسألها أبي عنّي، كانت تُخبره أنني تحت السرير، فيكتفي بهذا الجواب، ولا يسأل لمَ تحت السرير؟ وما الداعي لتواجدي بهذا المكان؟ ثمّ يلتصقُ بالتلفاز، ويبدأ شوط تذمُّره من الأخبار. كم تمنّيتُ لو أنها سألتْني من أين أحضرتُ تلك الصور؟ وكم تمنّيتُ لو أن عمّي الكيويّة يتدخّل، ليُنقذني من هذا الوَضْع، لكنني أظنّه كان مشغولاً في تصفُّح تلك المصادر الفنّيّة الجديدة المليئة بالصور العارية.

مرّت الأيّام من دون أن أتكلّم، جرَّبتُ كلّ الطُّرُق لأُثير انتباه والدتي، لكنني لم أُفلح، ورحتُ أسترجع خيالاتِ الصور، وأتذكَّر أهمّ تفاصيلها،

وفي إحدى المرّات تحقّقتْ أمنيّتي، وحلمتُ بفتاة، خرجتْ من صورة، عرّفتْني بنفسِهَا، وقالت إنها إحدى مخلوقات (مودلياني). لم أعرفْ مَنْ صاحب هذا الاسم، لكنني تيقّنتُ أنه رسّامها الفعلي، الذي جاء بها إلى هذا العالم، من خلال صورة. كانت برقبة ممشوقة، تقاسمْنا أنا وهي المساحة تحت السرير، أصبحنا عاشقَيْن، وبدأنا العلاقةَ سريعاً، وأخذتُ أقبِّلُها وأنا أدور حول رقبتِهَا الطويلة، وأتفحَّص كل تفاصيل جسدها، وأهتزّ، نعم، كنتُ قد جرَّبتُ الاهتزازَ بشكل طبيعي، كنتُ أهتزُّ وأنا أحاول أن أتذكّرَ من أيِّ صورة خرجتْ، وعندما حاولتُ أن أسألها، تفاجأتُ بحركة بذيئة من يدِها، ثمّ اختفتْ بعد ذلك. وعندما رفعتُ رأسي، لأبحثَ عنها، ارتطمَ رأسي بالسرير. وغادرتْ حلمي.

فتّشتُ كرتونةَ سراويلي القصيرة، في محاولة منّي للبحث عنها، علّني أجد تلك الصورة التي نطّتْ منها في جيب سروال، أو أن أجدَها مختبئةً تحت كوم سراويلي، لأشغلَ نفسي بها وأنا مُتمدِّد هنا من دون حركة، أستعيدُ حلمي اللذيذ من جديد، لكنني لم أعثرْ على أيّ صورة، أو حتّى على أيّ نَهْد ساقطٍ من الصور داخلَ الكرتونة. لكنّني تعلَّمتُ كيف أستخدمُ جسدي، حتّى بقيتُ لبضعة أيّام أخرى، وأنا أستخدمُهُ بطريقةٍ اهتزازية، تُشبهُ حركةَ رأسي عندما أهزُّه لأمّي، ما أجملَ أن نهزَّ. كنتُ أهزُّ وأنا أسمعُ صوتَ طقطقة الخشب المشتعل داخلَ تنّور أمّي ... أمّي الخبّازة التي دائماً ما كانت تطلبُ منّي أن أقفَ إلى جانبها، لأُرتِّبَ أرغفة الخبز، وأحملَها إلى الجيران الذين تعوَّدوا مذاقَ خُبزها الطيّب. كانت دائماً ما تقول لي؛ لو انطفأتْ نارُ تنّورها سننطفئ نحن أيضاً. وكنتُ أهزُّ رأسي لها، بالإيجاب، كان يهمُّها أن أهزّ رأسي باستمرار، حتّى تتبيّن قبولي وفَهْمي لكلامها. كنتُ ابن الخبّازة، كما كانوا ينادونني، كنتُ أشعرُ أنها كانت تحترقُ في داخلها عند سماعها لهم وهم ينادونني بهذا الصفة.

لم يكن أمام والدتي سوى هذا العمل، فبعد أن بُترَتْ ساقَ أبي في الحرب، لم يكن أمامه هو أيضاً، سوى أن يجلسَ أمام شاشة التلفاز، يُدخِّن السجائرَ بشرهٍ كبير، ويبصقُ على وجه الرئيس، ويهزّ، كان يهزُّ يدَهُ، أقصد، عندما يظهر الرئيس بخطابٍ، كما تعوّد أن يظهر دائماً. كان يعتقد أن الرئيس هو مَنْ أفقَدَهُ ساقَهُ، وأنا أعلم جيّداً أن الرئيسَ لا يعلم بساق أبي، ولا يعلم أين هي الآن. ولا يعلم أبي أن الرئيس لا يعلم بذلك، ما يهمّ هو أن الرئيس يكون رئيساً، وأن يستمرّ أبي بتذمّره وتدخينه.

كان دائماً ما يقول كلامه هذا لعمّي الكيويّ، بينما يهزّ عمّي رأسه متضامناً مع كلام أبي وهو يتصفّح إحدى كُتُبه. كنتُ أعلم أن عمّي حتّى لم يسمعْ ما قاله أبي، لأنه كان يُكرّر الكلام عينَهُ دائماً، وأنه تعوَّدَ أن يهزّ رأسه لأبي، كما تعوّدتُ أنا أن أهزّ رأسي لأمّي عندما تُخاطبُني. بعد أن خرجتُ من أسفل السرير، لم تُكلِّمني والدتي، ولم تطلبْ منّي أن أحملَ الخبز إلى الجيران، كانت غاضبةً، ليس منّي فقط، بل من أبي عندما كَسَرَ شاشةَ التلفاز بصندله البلاستيكيّ، عندما كان الرئيس يُلقي خطاباً حول حربه الجديدة. لم نكن نملكُ ثمنَ تلفاز آخر، ولم يهمّ عمّي هذا الأمر، لأنه كان يتلذّذُ بمشاهدة الصورة، وأنا أتحسَّرُ على مُشاهدة صورة واحدة.

وبعد عدّة أيّام من خروجي، تمّ إلقاء القَبْض على عمّي، لم يكن أبي يُفصِحُ عن السبب ولا أمّي، وأخبروني فيما بعد أن الرئيس شاهد عمّي عند زيارته المحكمة، ولم يرقْ له وجهه الذي يُشبه الكيوية، فأمر بسَجْنِه، لكنني فكّرتُ أن الرئيس كان على علْم بعلاقة عمّي مع الصور العارية، وأن سُلُوكَه هذا هو ما أودى به إلى السجن، وشكرتُ الله كثيراً، لأن أمّي مزّقتْ تلك الصور قبل أن يعلمَ بها الرئيس داخلَ صندوق سراويلي القصيرة. وفتحتُ باب مكتبة عمّي، وتركتُ عادة الاهتزاز.

نملةٌ فارسيةٌ ..

كيف أفسِّر تلك التقاسيمَ الحلقيةَ، وهي تختصر طولَ جسدي بستّ قوائم؟ لم تخلُ من النُّتُوءات الظاهرة عليها، ورأسٍ أقرب إلى أن يكونَ بيضاويّ الشكل، بشدقتَيْن قائمَتَيْن بشكل أُفقيّ التكوين، ينفرجان حتّى عند تثاؤُبي. لم أجرّبْ قبل اليوم أن أمشي بستّ قوائم. إنها تجربةٌ فريدةٌ، لأوّل مرّة أستخدمُ مجسّاتٍ في رأسي للاستدلال على الأشياء. أن تفقدَ حاسّة الشّمّ والتّذوّق، وتختصرُهما بإشاراتٍ لا إرادية في أعلى رأسِك، هو شُعُورٌ لا يُشبهُ أيّ شُعُور آخر، قد يكون أيّ تجلٍّ لمَسْخٍ جديد، أو هو تأثّريّ بقراءة مسخ «كافكا». لكنْ، مرَّ عام كامل على قراءتي له. ولم أكن أتصوّر حتّى شكل ذلك المَسخ عند قراءتي. وقد يقولُ البعض عند قراءة هذه الحالة: إنه يُحاولُ أن يُقلّدَ كافكا في أيّ شكل من الأشكال. لكنني أُقسمُ على أنّي وجدتُ نفسي نملةً فارسيةً.

أيّ سخط حوّلني إلى ما أنا عليه، أيكونُ دعاءَ جدّتي، وأنا الذي لطالما قليتُها على نار هادئة، بكل ما فعلتُهُ من عصيان لأوامرها عندما كانت تراني وأنا أهدمُ مَحميّات النمل التي كانت تنبجسُ على شكل تلّة بعين واحدة في الحديقة الخارجيّة لبيتنا؟! هل يكونُ مثل هذا التّصرّف الصبيّانيّ القديم هو ما حوّلني إلى نملةٍ؟ وفارسيّةٍ؟!

جدّتي التي لم تعرفْ بحياتها معنى الملابس الداخلية، أيكونُ لها كلّ

هذا الشأن عند السماء، لتتدخّل في مَسخي إلى ما أنا عليه. جدّتي العتيدة والمنشغلة ببقجة أيّامها التي لا أعرفُ لها عنواناً آخرَ، سوى أن كلّ ما يُذكّرها بجدّي كانت تخزُنُهُ في تلك البقجة الساتانية المَلمس.

أيّ فعل ذلك الذي حوَّلني إلى هذا الشكل المسخوط. استبعدتُ سخط جدّتي، وأنا أرى رأسي يتدحرج أمامي بين مجموعة من الأشخاص المنقّبين، كانوا يتشابهون في أرديتهم وطريقة كلامهم بلهجة فصيحة، بينما كان بعضُهم صامتاً بعينَيْن جاحظَتَيْن، لا تكادُ أعينهم تطرفُ من شدّة ثباتها.

كان رأسي يتدحرج، بينما جسدي ظلّ يضخُّ ما تبقّى من دمي عبر فتحة عنقي المبتور. ذكّرني هذا المنظر بذبيحة العيد التي كنا نُقيمها في عيد الأضحى، حين شاهدتُ الثورَ يرفسُ بكلّ اتّجاه، ويدفعُ الهواءَ بقَدَمَيْه، بينما كان عنقه يضخُّ الدم، بشكل سريع. لم أنسَ بخار ذلك الدّم الدافئ. كان يشبهُ ما أنا عليه الان.

الغريبُ أنني لم أشعرْ بألم، وأنا أشاهدُ الاثنين، جسدي الممدَّد، ورأسي الشبيه بكرة القَدَم، وهو يتدحرجُ من على الشارع المعبَّد إلى حافة ترابية قربَ كيسٍ من النايلون الأسود.

يداي مقيّدتان خلف ظَهري، قميصي الأبيض لم يعدْ كما كان، لون الدّم الأحمر لم يبقَ من بياضِهِ سوى فسحاتٍ صغيرة، كلّ شيء تغيَّر، إلا شريط حذائي، فلا يزال على وضعِهِ كما هو، سوى بعضِ قطرات الدّم التي نالتْ منه. في رأسي آلافُ التساؤلات التي لم أجدْ لها أجوبةً حتّى الآن، كلّ تلك التساؤلات تدحرجتْ، هل يعلمون ما بداخل رأسي حتّى يتمّ قَطْعه مثل فاكهة متدلّية من غصن جسدي المزرقّ!

كل ما يُفاجئني الآن هو جسدي، جسدي الجديد، المُفصَّص. ستّ قوائم تفي لحَكِّ أيّ جزء من هذا الجسد الذي لم أعتدْ عليه حتّى الآن.

ماذا سأُخبرُ جدّتي؟ وكيف؟ وأنا على هذه الهيئة.

قد تدوسني من غير أن تعلم بذلك، وحتماً أنها لن تسمَعَني أبداً، جدّتي ثقيلة السَّمْع، فما بالُكُم وأنا نملةٌ. بالتأكيد، لن تسمعَ صرخةَ نملة.

عن هباء الجثّة، أحاول أن أكتب، وأنا الآن في ظلِّها الشبحيّ أعيشُ بهيئة نملة. ولمَ لمْ أكنْ بهيئة شيءٍ آخر؟

نملةٌ فارسيةٌ؟!

حين مَدّ يدَهُ لي، تحسّستُ خُشُونَتَهَا، كان يتكلّم باسم الله، لم أعرفْ لحظتذاك، أن يدَ الله التي فوق أيديهم بهذه الخشونةِ، كان يرأس مَنْ معه من المسلّحين، بينما ذقنُهُ تكاد تصل إلى عينَيْه، من غير أن يُشذِّب نهايَتَهَا.

سألَني عن اسمي. فأجبتُهُ.

طَلَبَ منّي أن أُخبرَه اسمَ جدّي؟

- عبد الحسين، قلتُ.

بعدها شاهدتُ رأسي يتدحرجُ، وأنا تحوّلتُ إلى نملة فارسية.

- كم أكره جدّي!

مات، ولم يعرفْ أن اسمهُ سيتسبّب بقَتْلي وتحويلي إلى نملة.

عبد الحسين الصنديد، جدّي لم يكن هو الآخر مَن اختار اسمَه، ولم يكن يعلم أنه سيتسبّب بقَتْل أحد أحفاده.

لم أكره في حياتي شيئاً بقدر كُرهي لجدِّي.

كنتُ أردّد هذه الكلمات وأنا أسيرُ على حافة سجّادة، لم أرَ أوّلها من آخرها، بينما كانت أرضيةُ السّجّاد تعيقُ حركتي، أصبح سَيْري صُعُوداً ونُزُولاً، أتعثّر لأني لم أعتدْ حتّى الآن السَّيْر بستّ قوائم، مررتُ بطريقي على سرْبٍ من النمل، كانوا يُشبهونني في كلّ شيء، تكوينهم، لونهم الأسود، مجسَّاتهم، كانوا مُنشغلين في تقطيعِ صرصارٍ ميت، قد يكون صرصار «كافكا» ذاته، أو مَسخه. طلبتْ منّي نملةٌ، كانت تُشبهني إلى حدّ كبير، أن أساعدَها في حمل الجزء العلوي من فريستِها، لكني تردّدتُ، ولم أُبدِ يدَ المساعدة بحجّة استكشاف المكان، وأضافتْ نملةٌ أخرى كانت ترمقُني بنظرة ازدراء، بسبب امتعاضي عن إبداء المساعدة، بأنني قد خرقتُ أعرافَ وتقاليدَ النمل، وذلك برَفْضي تقديم المساعدة، ووصفتْني بأنني نملةٌ متعجرفةٌ. بدا ردّاً عدائياً أكثرَ من كونه ودّياً، باعتباري من النوع ذاته، لكني لم أهتمّ لكلامِها، وأخذتُ أحرِّك قوائِمي السّتّ من دون أيّ وَعْي منّي، وبإدراكٍ عصبيّ مُتعثّر، أخذتْ قوائمي بترتيب نقلاتها لاستكشاف المكان.

بدا المكان مألوفاً لي، أدركتُ أنها غرفتي، لكنها تبدو أكبر ممّا هي عليه. كنتُ في السابق أجتازُها بعدّة خطوات بسيطة، لكنها أصبحتْ تحتاج منّي جهداً في عضلات قوائمي الناتئة.

أن تعيشَ بهيئةٍ غير ما أنت عليها، ليس بالشُّعُور الذي يُمكنُ تسميته بسُهُولة. فكّرتُ بأني سأجدُ أشياءً قد أضعتُها في السابق، لأنها كانت أشياء صغيرة مثل دبّوس أكمام قمصاني المذهّب. وتميمة كانت قد سقطتْ من جيبي، وأشياء أخرى.

تجوّلتُ بأروقة الغرفة مستكشفاً كل الأشياء التي بدتْ لي كبيرة عند رؤيتي السابقة لها، وعرفتُ أنني نملة فارسية ...

عندما رأيتُ النملات الأصغر منّي حجماً، كنّ يهربنَ، أو يتحاشينني، لم أعرفْ ما الذي كان عليّ فعلُه وأنا بتلك الهيئة، وما السبب من هروبهنّ؟ قد يكون بسبب هيئتي الأكبر، أو عدائية النمل الأكبر للأصغر منه بالحجم.

مررتُ بذبابَتَيْن، كانتا تمارسان الحُبّ على حافة كوبِ شايٍ دبقٍ، فأبطأتُ في خطواتي، وكأنني أشاهدُ فيلمَ بورنو، لكنْ، هذه المرّة كان فيلم بورنو حشراتي، ولم تكن رؤيتي كما اعتدتُها كإنسان، بل كانت بطريقة مربّعات متقطّعة، أتحكّم بقُرْب وبُعْد الصورة عنّي، ولم أكن أعرف كيفيةَ حُدُوث ذلك، لكني اخترتُ أن أتقرَّبَ منهما، كان صوتُهما مثلَ أنين الراديو، تقصَّدَ الذَّكَرُ رُكُوبَ ذبابَتِهِ بطريقةٍ اهتزازيةٍ، ولم يتوقّف عند رؤيتي محملقاً فيه وأنا أتنقَّل بعينَيْن كبيرَتَيْن إلى وَضْعه. فنكت قوائمه عن مركوبته ....

وقال: امشي لك....

حتّى الذباب كانت لهجته دارجة.

لم أكنْ صاحبَ ذوق رفيع، لتدخّلي في شُؤُون أبناء صنفي الحشراتي، فاعتذرتُ لتبجّحي، وأكملتُ استكشافي.

كانت الغرفةُ قديمةً، يتصدَّرها بابٌ خشبيٌّ شاحبُ اللون، وسجّادة، لم ألحظْ نُقُوشها، لأني كنتُ أنظر بطريقة أفقية بمستوى الأرض، حاولتُ أن أكتشفَها، لكنها كانت أكبر ممّا ظننتُ، ولم تكنْ تخلو من الثُّقُوب التي بدت لي أنها آثارُ نار أو جمر، ترك أثره عليها، وطاولة خشبية بكرسيَّيْن متقابلَيْن، تقع قرب سرير بوسائد، لم تكنْ ناصعةَ البياض. على أحدهما

سترةٌ رماديةٌ، تدلّى أحدُ كُمَّيْها إلى الأرض. إنها سترة جدّي، لكنْ، مَنْ أحضرَهَا إلى هنا؟ إنني أتذكّرها.

شَغَلَني موضوعُ البحث عمّا يقبع فوق الطاولة، لم يكن هدفاً لسبب معيّن، لكنني حاولتُ أن أعرف بدافع الفُضُول عمّا يستلقي فوقها. تسلّقتُ كُمَّ الجاكيت التي كانت تلامس الأرض، ومن خلالها ارتقيتُ إلى الأعلى، حيث أصابني الإعياء عند تسلُّقي تلك النقطة المرتفعة، كانت أعلى قمّة في الغرفة، وكأنني تسلَّقتُ قمّة جبل إيفريست، عند وُصُولي، نظرتُ من أعلى الطاولة إلى أسفلها، أحسستُ بسيطرتي على المكان من خلال القمّة التي أقفُ عليها.

شُعُورُ بُلُوغِ المرتفعات يجعلُكَ تشعر بأنك سيّد العالم، لكني اليوم نملةٌ! حاولتُ أن أبحث عن جدّتي، لأخبرَها أن اسم حبيبها عبد الحسين هو ما تسبّب بقَطْع رأسي وتحوُّلي إلى نملة، لكنني لم أجدْها.

كان سطحُ الطاولة رطباً، لدرجة تُعيق قوائمي من السَّيْر، استنتجتُ اندلاق كوب ماء عليها، ما أدّى إلى رُطُوبتها، لكني غيَّرتُ رأيي بعد أن لاحظتُ لُزُوجة قوائمي ونُتُوءاتها عند مسيري عليها، والسائلَ الأحمرَ الذي كسا منخفضاً في الطاولة الخشبية، تأكّدتْ صحة رأيي بعد رؤيتي زجاجة المارتين المسكوبة، كان شراباً من النوع الأحمر، لم يكن شكلُها غريباً عنّي، راجعتُ ذاكرتي، أتكون جدّتي هي مَنْ تشرب المارتين؟ بعد أن تحوَّلتُ إلى نملة، لا يمكن أن أستغربَ أيّ شيء.

كانت هناك بعضُ الأوراق، توزَّعتْ بشكل فوضويّ أعلى الطاولة، بينما كان قلمي الباركر قد استقرّ بين صفحاتٍ، لم تكتملْ كتابتُها، حاولتُ أن

اقرأ الكلماتِ المكتوبةَ على الورق، لكن حجمَ الكلمة كان يجتازُ مساحةَ عيني، ممّا يجعلُني لا أدركُ معناها، شعرتُ بأنّي لا أحيطُ بشيء، وأن كل الأشياء كانت تُحيط بي. استغرقتُ بعض الوقت، لأكتشفَ سطح الطاولة، بينما انشغلَ بعض النمل من فصيلتي بحَمْل أجزاء الصرصار الميت بعد تقطيعه إلى أجزاء صغيرة.

جلكتُ قوائمي الأمامية بالمجسّات التي تعلو رأسي، وتمدّدتُ في المكان، وأخذتُ مجّة من سيجارة، كنتُ قد أشعلتُها، وانهمكتُ بكتابة قصّة أخرى .

في الحقيقة ....

لم يُعجبني دورُ النملة الفارسيـة ...

عينٌ زجاجيةٌ ...

واحد زائد واحد، تسألُني، وكنتُ أُجيبها أنهما يُساويان سريراً، كانت تحبّ أن أخبرَها ذلك، لنتّجهَ بعدَها إلى النتيجة، أعني السرير، لنجمعَ ونطرحَ ما تبقّى منّا بطريقةٍ، نتوهُ في حساب أوّلها من آخرها، ولأن لا شيء يظلّ على حاله، كما كان يردّد رجلٌ كفيفٌ، كان يجلس عند بوّابة مقهى حسن عجمي في شارع الرشيد، هي أيضاً تغيّرتْ، بعد أن استبدلتْ بعينها الزجاجية أخرى، أخبرتْني أنها أقلّ وزناً من السابقة. ولم تكنْ قبل ذلك تُعاملُني بازدراء، فظننتُ أن العين الزجاجية الجديدة هي ما جعلتْها تُعاملني بهذا الشكل، حتّى فكّرتُ في إحدى المرّات عندما كنّا على نتيجة واحد زائد واحد أن أقتلعَ عينَها، وأهربَ بها إلى حيث لا يمكن أن تجدَها، لكن السرير مَنَعَني من ذلك.

كنتُ أضعُ كفّي على عيني، محاولاً أن أرى العالم بعين واحدة، مثلما تراه هي. كان شُعُوراً مختلفاً، شُعُوراً يفرضُ عليّ الالتفافَ من حولي، حتّى أستطيعَ رؤيةِ ما لم تُدركْه عيني المغمضة. في بعض الأحيّان، لا يمكننا الشُّعُور بالآخرين إلا حين نُجرِّب ما يُعانون منه.

أخبرتْني أن عينَهَا الزجاجيةَ تحرقُ محجرَها من الداخل، عندما تكون درجات الحرارة مرتفعةً، قالت كلماتها وهي تخلعُ عينَها من مكانها، كنتُ أتفحّص كرتَها الزجاجيةَ وهي تضعُها في إناءٍ مليءٍ بالماء، لكي تُبرِّدَها،

وددتُ حينها أن ألحسَ محجرها حتّى أبرّده، لتستريح كرتها داخلَه، من دون أن تشعرَ بالحرارة، أخبرتْني عن ألمها وثقلها داخل محجرها الذي يعاني من عظمةٍ مكسورةٍ، تُسبِّب لها الوَجَعَ عند ارتدائها عينها الزجاجية.

كنتُ أتفحّصها مثل كلب يلهثُ، وهي تتحدّث عن أنواع العدسات والكريات الزجاجية وأحجامها وأوزانها، وأنتظر لحظة استرخائها، حتّى أشتغل بمصّ شفتها السفلى، لأسحبَ منها طعم نيكوتين سجائر المارلبورو التي كانت تُدخِّنها. جدّيّاً لم يكن يهمّني محجر عينها اللحمي، ولونه الوردي القاتم أكثر من شَفَتَيْها وطعمهما التبغي. كانت شفتاها مثل سرير، أشاهدني عليه، بينما تذوبُ هي بموائها مثل قطّة بشهوانية عالية.

لطالما كنتُ أكرهُ رائحةَ الدخان، وأتضايقُ من أيّ شخص، يجلس بالقُرب منّي، وهو ينفث دخانه في فضاء الباص. لكن طَعْمَ التبغ من شفتَيْها، كان يختلف عن أيّ طَعْمٍ آخر. كنتُ أتخيّل أن لطَعْم التبغ لوناً بُنّيّاً، يصبغ أسناني حين أمتصّه منها مثل بقّة مُتعطّشة للدّم. ثمّ أقومُ بفعل غريب لحظة صبغ محجرها الورديّ باللون ذاته، وأنا أخطِّط مساراتي وجغرافية رغباتي، على أساس كلّ ما تجوسُهُ يداي من جسدها الغَضّ. وأنهمكُ بلحَسْ أبطَيْها المشعرَيْن. وأهيمُ بطَقْس غرائبيّ أشبه ما يكون بطقس سكّان المايا وهم يلجون كُهُوفَهم الحجريةَ عند حافة جبالهم القاحلة، وأنا ألجُ محجر عينها الوردي بلساني، وأتحسّس عظمتها المكسورة. علَّني ألحمُ كَسْرَها بفكرة أشبه ما تكون فنتازية، كنتُ أعيشها في مخيّلتي وهي تستشعرُ ما أقوم به، فتدفعني، وتصفُ لساني الطويل بلسان الكلب، ثمّ تنتفض من مكانها، وتخبرني أنها ليست كلبتي.

كانت تُخبرني أنها تختبئ خلف نظّارتها حتّى لا يلاحظَ الناس حَرَجَهَا

وهي تميلُ برأسها، متلافيةً استدراكَ المقابل لها خَلَل عينها اليمنى، وتخفتُ رأسها عندما تخلعُ عينها متلفّتةً رغم خُلُوّ المكان. هاجسُ القلقِ كان أوّل هواجِسِها.

ودائماً ما كانت تُخبرني أنها بحاجة إلى عين زجاجية أخفّ وزناً من عينها التي كانت تشعر بثقلها، قالت هذا بينما كنتُ منشغلاً بتلميع عينها بقطعة قماش بيضاء، كانت تضعها في حقيبتها الجلديّة، لتستخدمَها في تنظيفها. ناولتْني قطعةَ القماش، ورحتُ أجلو سطحَها الزجاجيّ، حتّى خطرتْ لي فكرة أن أتذوّقها، ففعلتُ.

لم تتمالكْ نفسها وهي تشاهدُني أتذوّق عينها، سألتْني عن طعمِها، أخبرتُها أنها تشبهُ طَعْمَ الشهد، فضحكتْ، وأخبرتْني أن كذبي جميل، لأن عينَها مالحة، وأنها تهوى أن تتذوّقها دائماً، وراحتْ مسترسلةً في ضحكتها من جديد.

كنا نلعبُ لعبة الأسئلة. ففاجأتْني عن أكثر شيء أستطيبُه؟ فأخبرتُها من دون أن أتردّد حينذاك أن عينها الزجاجية هي أكثر ما أُحبّ.

تفاجأتْ .... رفعتْ خصلة من شعرها، كانت تتعمّد أن تغطّي بها عينها الزجاجية، ثمّ سحبتْ نَفَساً عميقاً من سيجارتها، وهي تجرُّ طرفَ فمها مُعبِّرة بابتسامة صفراء عن عدم اقتناعها بإجابتي.

ثمّ عاودتْ سؤالها، لكنْ، هذه المرّة كان عن أكثر شيءٍ أكرهُهُ، فأخبرتُها:

كم أكرهُ أن أكون موظّفاً، يرتدي سترته الرمادية، ويمشّطُ شعره بطريقة رتيبة، كما اعتاد الموظّفون تمشيطَ شُعُورهم، وأخرجُ من بيتي الساعة السابعة صباحاً، أتوجّه إلى عملي في أيّ دائرة رسمية، أجلسُ قبالة مدير،

يرتدي نظّارات سميكة، له وجهٌ متغضّنٌ، يشبهُ وجه كلب من فصيلة بوكسر، غاضب، متشنّج، يبخل بابتسامته على الموظّفين، يلفظ الكلمات من معدته من غير أن يُحرِّكَ شفتَيْه، يرتدي جاكيتاً رمادياً وقميصاً، زرّر أزراره من دون ربطة عنق، حتّى يتشبّهَ بمدير عامّ الدائرة المنتمي لأحد الأحزاب الإسلامية.

كم أكره حياة الموظّفين! لا إثارةَ بها، ولا حسابَ لنهايتها، سوى راتبٍ تقاعديٍّ شاحبٍ.

قلتُ هذا، ثمّ ارتدتْ عينَهَا، ومضتْ، سألتُها إنْ كنتُ سأراها مرّة ثانية؟

لكنها لم تهتمّ. ثمّ أعادتْ تغطية عينها بخصلة من شعرها رغمَ ارتدائها النظّارات.

عندها حاولتُ أن أصنعَ من رقبتها حبلاً طويلاً، وأنا أتخيّل نفسي أُطبق على رقبتها بكلتا يدي، لعدم اهتمامها بجوابي على سؤالها.

حاولتُ أن أقتلعَ عينها الثانية حتّى أكونَ آخر صورة تُشاهدُها في حياتها، ورحتُ أبحثُ عن كل جزء منها، لأصنع لوناً أزرق في فسحات جسدها الأبيض. شددتُ شَعرَها، ضربتُ عينها، راحتْ تتدحرج، فسقطتْ من خلال فتحة غطاء المجاري. ركضتُ إليها، لحقتُها، حاولتْ رَفْعَ غطاء المجاري. لكنها لم تستطعْ، كان مثبتاً بشكل محكم، لا يمكن زحزحتُه من مكانه. غطَّتْ عينَها بيدها، شتمتْني، ضربتْني على صدري، حاولتْ أن تمدَّ يدَهَا إلى عيني حتّى تقتلعَها، وتجعل منّي نسختَها الثانية، لكني ضربتُها بقوّة حتّى سَقَطَتْ على الأرض. لم أستطعْ أن أتعاملَ معها بطريقة أخرى. كلمّا ضربتُها ازدادتْ شراسة. أخبرتْني أنها لن تتركَ عينها في فتحة

المجاري. وأن عليّ أن أساعدَها، لكنني تركتُها تحاولُ مع غطاء المجاري بغيرِ مساعدة منّي.

الشُّعُور بالحقارة شُعُور مميّزٌ، يمكن أن تمارِسَه في مثل هذه المواقف من دون الرُّجُوع إلى منظومتِك الأخلاقية، لإخبار نفسِكَ أنك على خطأ، أو أن عليك إبداء المساعدة في مثل هذه المواقف. كلّ ما عليك فعلُه هو مغادرة منطقة شُعُورِكَ الأخلاقي، لتبدأ بفعْل يكون غايةً في الدناءة.

ورغم مخيّلتي المتعنّفة التي استخدمتُها مع نفسي في تصوُّرها بمثل هذا الوضع. لكنها كانت قد غادرت المكان، وتركتْني. فاتّجهتُ إلى غطاء فتحة المجاري، سحبتُهُ بقوّة، بذات القوّة التي ضربتُ بها وجهها، ثمّ مددتُ يدي إلى داخل الفتحة، تحسسّتُ الأرضيةَ، عثرتُ على عينها، ورحتُ ألحسَهَا من جديد.

لم أرها بعد آخر لقاء لنا، وراحت الأيّام تمضي بسرعة، وأنا تعوّدتُ أن أزورَ المكان الذي كنا نمضي أوقاتنا فيه، حتّى بعد رحيلها، كنتُ أتخيّلها في أرجاء الغرفة ... أتخيّلُ شعرَ عانتِها الملتفّ حول عنقي، مثل أفاعي الأوديسا، وأنا أغوص في داخلها، وأسمع تأوّهاتها التي تشبه قطعتَي زجاج، تحتكّان ببعضهما البعض. لم يكن يهمّني ذلك الصوت. ما يهمّني هو أن أنهشَ كل جزء منها. كنتُ أتذكّر شكلها حين تنطق الكلمات بشهوانية عالية، كانت تُثير حتّى أزرار قميصي.

وبعد فترة انتظاري غير المصحوبة بأيّ أمل، جاءني اتّصالها، لتُخبرني أنها استبدلت بعينها الزجاجية أخرى، أخفّ وزناً منها، وأن عظمة عينها المكسورة التحمتْ، وأنها لا تشعر بثِقَلٍ في عينها، عكس ما كانت عليه

عينها سابقاً. حتّى إنها استبدلت بنظّارتها الطّبّيّة أخرى مُدبّبة النهايات من الأعلى. ولم تكتفِ بذلك فحسب، فبعد أن استبدلتْ عينها، وعالجتْ عظمتَها المكسورة، وغيّرت نظّاراتها الطّبّيّة، رجعتْ، لتُخبرني أنها استبدلتْني واحداً آخر. ثمّ أنهت الاتّصال، وبغير وعي منّي، مَدَدْتُ يدي إلى جيبي، استخرجتُ عينَهَا الزجاجية، ورحتُ ألحسَها، وكانت هذه المرّة مالحةً.

حذاؤُها الأحمرُ

صحيحٌ أن الأحلام لا يمكن رؤيتها، لكنْ، في ذلك اليوم صار ممكناً أن تسمعَ حفيفها ورفيفَ أجنحتها، مثل عصافير خفيّة، مُحلّقة في فضاء الانفجار، لا تستطيع أن تلمَحَها بالعين المجرّدة. كانت مريمُ إحدى هذه الأحلام، المُحلّقة بروحها، متسائلة عن حذائها الأحمر التي حاولتْ أن تبتاعَهُ لها والدتُها قبل العيد. لكنّ غيمة دخانية كبيرة مصحوبة بالنار حالتْ بينها وبين ارتداء حذائِها الذي حلمتْ به. هذا ما جاء في التقرير الملائكيّ المرفوع إلى ملاك، كان يستلم كل تقارير ضحايا انفجار الكرادة.

لا يمكن أن يصدرَ قرار في السماء من غير أن تكون الملائكة أوَلَ منْ يعلم به، إنهم الأقرب إلى السماء من البشر، في معرفة أولى القرارات الصادرة لقُربهم من الله قبل نُزُولها إلى العالم المتمثّل بالبشر العبيد. تمتمَ ملاكٌ بهذه الكلمات، لكن واحد آخر كان يمُطّط جناحَيْه بالقرب منه، أشار إليه بأن يسكتَ، فَسَكَت. لا مجال هنا للإفلات من عُقُوبة الاعتراض، ولا يمكن تدارك الأمور بعدما تحدث، خاصة إذا كانت مصحوبةً بعقوبة النفي، أو بَتْر الجناحَيْن، ليتحوّلَ الملاك بعدها إلى أيّ شيء آخر، لكنْ، من غير جناحَيْن. السماءُ تخلو من الأحلام، وسكّانها يحسدوننا على أحلامنا التي نظنُّها موجودة هناك. لكن الأجمل أننا نستطيع أن نحلم وهم لا يستطيعون بُلُوغ الحلم.

لا يزال الجوّ العامّ في السماء بحالة صخب كبير، علاماتُ الاندهاش والحيرة مرسومة على وجوه الملائكة الذين بدوا في حالة أقرب منها للذّعر، والتقارير لا تزال تتكدّس بشكل سريع ممتلئة برائحة الدخان والدّم وصراخ على أشكال أفواه فاغرة، مرسومة على ظهرها، لكنها كانت مختنقة، ومن دون صوت ... مختنقة بصرخات، تمنَّى الملاك الرئيس لو أنها انطلقتْ، علَّها تصلُ إلى صانع القبّة السماويّة المختفي عن الأنظار، والقابع في نهاية ما لا يمكن أن يتصوّره حتّى الملائكة أنفسهم، فهم مأمورون بعدم التفكير أو النطق بما لا يتناسب مع ما كُلِّفوا به من مهامّ. وما عليهم إلا أن يلتزموا بكل القوانين السماويّة.

المجنّحون يلتفتون، المكتبُ الملائكيّ مزدحمٌ، خاصة في مثل هذا الوَضْع، تكون الإجاباتُ ضائعةً، والسؤال قد يذهب بحياة الملاك أو نَفْيه إلى مكان آخر في السماء. بينما أخذتْ رائحة اللحم المشوي تصل إلى أُنُوف الملائكة. المشهد يصيب الكلّ بالإرباك والتّوجّس من أن يكون هناك ما لا يُحمَد عقباه، بعد كلّ هذا الكَمّ الهائل من الجثث. لكنْ، ماذا يمكن أن يحصل؟ السماء هي السماء، والرتابة لا تنفكّ أن تُغادرَ عمل المجنّحين البيض في نَقْل التقارير والمراقبة. وهناك أمثلة كثيرة، بل وإعداد تقارير أكثر من هذه التقارير المنقولة في هذا اليوم. لا شيء سيتغيّر، ومآل الأمور لا يمكن التّنبّؤ بها. وقت الأنبياء انتهى، وما على الموجودين سوى الامتثال للأوامر غير المرقّمة لكثرة إصداراتها، منوطة بأوامر إلهيّة، تصدر على شكل إشارات، أو في بعض الأحيان، تكون على شكل علامات دلالية، تُرشدهم على القيام بعمل أو توجيه ما يصل في نهايته إلى صاحب المكتب الملائكيّ، ليُوزّعه بشكل عادل على الملائكة. لكنه اليوم يعدّ التقارير بشكل سريع، ومن بين كلّ التقارير كان هناك تقرير يحملُهُ برقّة في يده، كَتَبَ عليه (مريم وحذاؤها الأحمر).

فكَّر بصمت ماذا لو أنها أكملتْ حياتها من غير أن تتعرّض لما حَدَثَ اليوم، ومن غير أن تتخشّب كقطعة فحم جامدة، ماذا لو أنها لفظتْ أنفاسَها بسهولة قبل أن تموتَ بلا نار أو دخان أسود. فكَّر بالصور التي قد شاهدتْها قبل أن تتفحّم. ثمّ ارتعدَ خشية من أن يسمعَهُ أحدٌ، وقال ملاكٌ آخر وبصوت خفيض وعينَيْن دامعَتَيْن :

ماذا لو كان لون حذائها أبيض؟ هل كان يمكن أن تعيش؟

قال هذه الكلمات متسائلاً، وقبل أن يُكمل بقيّة كلماته، كان قد اختفى هو الآخر.

وراح الملاكُ الرئيس يشرحُ ضرورة سُكُوت الملائكة، من دون أيّ اعتراض، ومن دون أن يُلاحظ اختفاءَه، لانشغاله بعنوان تقرير مريم، استرسل في كلامه يقول:

لا يمكن لأحد أن يعترضَ هنا، للسماء قوانينٌ، لا يمكن الوُقُوف ضدّها، وما عليك إلّا أن تفعل ما تُؤمَر به. قال الملاكُ الرئيس مخاطباً إيّاه. وأضاف أن الكلَّ وَجِلٌ، وأن عدمَ المباشرة في الكلام هو الحلُّ الوحيد لنجاة ملاك مُعترض على ما يجري في السماء، وإلا ستندمُ على كلامكَ هذا فيما بعد، فقد شاهد خلال ملايين السنين التي عاشها أمثلة كثيرة، لكل مَنْ يحاول أن يعترض داخل البيئة السماوية.

ثمّ أشار إلى سبيكر إلهي ضخم HD ينقلُ كلّ شاردة وواردة بشكل واضح إلى أقصى ما يوجد في السماء، حيث لا أحد من الملائكة باستطاعته الوُصُول إلى هناك، لكنه لا يعلم إن كان هذا السبيكر الضخم قد نقل صرخات المتفحّمين بنار انفجار الكرادة؟ أم أن هناك مَنْ أشار إلى كَتْم

الصوت، حتّى لا يسمعَهم أحد؟ قال خطابه هذا، ثمّ لاحظ بعدها عدم وُجُود صاحبه الملاك الأقلّ شأناً منه، واستدرك أن سؤالَه هو سببُ اختفائه.

حتّى هو لا يعلمُ إلى أين!!!

لكن ما يهمّ أنه اختفى. لمجرّد سؤال.

أكمل صاحب المكتب الأبيض قراءةَ تقرير مريم، وهو قاطبٌ جبهتَهُ اللؤلؤية على عينَيْن حمراوَيْن. متسائلاً هل يمكن لهذه الفتاة التي لم تبلغْ ربيعَهَا الخامسَ أن تموتَ؟ واستطرد مُجيباً نفسه: إذنْ، ما الداعي لخَلْقها؟ لكنه انتبهَ لأفكاره وهي تنثالُ بشكل غير مُتدارك منه، ثمّ التفتَ إلى طابور تحليق باقي الملائكة، وهم ينقلون مجموعةً كبيرةً من التقارير، بشكل مستمرّ، من دون أيّ انقطاع منهم.

ثمّ ترك باقي التقارير بشكل مؤجَّل، للتحقيق فيها، وركّز على مريمه، وطَلَبَ استدعاء الملائكة المسؤولين عن كتابة يوميات البشر، بشكل عامّ، وملائكة الكونترول المسؤولين عن إنترفيو الكون حتّى يتحقّق من حادثة مريم، وأخذ يفكّر بأن هناك خطأ ما، وما كان على مريم أن تموتَ بهذا الشكل. هو وحدَه مَنْ كان باستطاعته أن يتساءَلَ عن أُمُور، لا تسمح لغيره في تداوُلها، باعتباره المسؤول الأهمّ والمُشرف على مَنْ هم أقلّ منه شأناً، ولأنه الأقدمُ من بينهم. حقيقة أن القِدَمَ له أولوية حتّى في السماء، وليس على الأرض فقط. وما هي إلا لحظات حتّى بانتْ غيمةٌ كبيرة بيضاء فضّيّة، تقترب بشكل منتظم، وتبيّن أنهم جَمْعٌ غفير من الملائكة، جاؤوا بمختلف اختصاصاتهم، بدعوة من صاحب المكتب الملائكيّ لبداية التحقيق في

حادثة التقرير. فهبط الملائكة المسؤولون عن غرفة (الكونترول) الكونية. كاميرات المراقبة لأحداث الكون أولاً. ومن بعدهم، أخذ الكلّ يهبط بشكل مرتّب حسب الدور والأهمّيّة، ليقفوا في أدوار تراتبية، يشبهون حَبّ الرّمّان في ترتيبهم وتراصّهم. وجاء من بعدهم الملائكة المدوّنون لكل ما يحدث بهذا الكون الأنيق. ومن بعدهم أيضاً، جاء المراقبون المسؤولون عن سجلّ كل الملاحظات. ليس فقط أهمّها، بل حتّى أبسطها حتّى لا يتمّ تفويتُ أيّ شيء. وهكذا دواليك، وَقَفَ الجميعُ في صُفُوفهم، من غير حركة أو إشارة إلا بإذن الملاك الرئيس.

الكاميرا الأولى ..

تقدَّم الملاك الأول المسؤول عن كاميرا المراقبة، أمام صاحب المكتب الملائكيّ الأبيض، الذي بدا عليه أنه يترأس تحقيق حادثة الكرادة، وهو يجلس على مقعد رخاميّ بوسائد مصنوعة من ورق أشجار السندس، محاولاً أن يشرح ما سجّلتْه كاميرته في حادثة موت مريم، في ذلك اليوم. واسترسل يروي ما حَصَلَ هناك. وابتدأ كلامه، عندما أخّرتْ مريم والدتَها، بسبب إضاعة شريط شَعْرها المذهّب، بعدما استنهض بكاؤُها كلّ أخوتها للبحث عنه، حتّى تمّ إيجاده مربوطاً حول عنق دبّها المفضّل، المنسدح قرب وسادتها، كما تعوّدت أن تضعه، وتغفو على وجهه الصوفيّ الموخز بزرَّيْن سوداوَيْن يدلان على عينَيْه الصغيرتَيْن وزرّ آخر أكبر، يبرز على شكل أنف مُدبّب من أعلاه، وثغر تنطّ منه صوفة حمراء صغيرة مثل لسان ممدود.

ابتسم الملاك، وأحنى رأسه، وتمتم مكرّراً الكلام عينه: ربطتْ شريطَ شعرِها على رقبة دبّ، ولم تتذكّر ذلك!! ثمّ أدمعتْ عيناه، وحاول أن لا يُظهر ذلك، فأوسع حدقتهما، كي يَشرب جفناه ما ترقرقَ فيهما من دُمُوع.

ثمّ أكملَ الملاكُ الساردُ ما جاء في تسجيل كاميرته بشكل متواصل، وبصوت متأثّر وحزين، وأضاف:

وبينما كانت والدتها تربطُ خصلات شَعرها الذهبية، كان هناك مَنْ ينتظر استقدامَ عجلة مفخّخة، متسائلاً مع مَنْ كانوا معه عن سبب تأخّرها.

لكن السّيّارة ذاتها التي كان يسأل عن سبب تأخّرها، كانت قد علقتْ بازدحام مُرُوري، أخّر وُصُولها إلى حيث كان ينتظرها.

فجلس ينتظرُها. وبينما هو كذلك. كانت والدة مريم تنظر إلى ساعتها، وتُذكّر ابنتها إن كانت قد نسيتْ شيئاً آخر قبل ذهابها إلى حيّ الكرادة المعروف ببغداد، والمشهور بمحالّ بيع الألبسة الجاهزة والمطاعم والمقاهي المنتشرة على جانبيّ الشارع. لكن السيّارة المفخّخة كانت قد وصلتْ، وتلقّى الانتحاريّ التعليماتِ ممّنْ جهّزوه بها.

فَقَفَزَ إليها بعدما ترجَّل منها سائقها الأول، الذي أحضرَها إلى هذا المكان، الذي كان عبارة عن كراج لتصليح السّيّارات، وعندما تحرّك، توقّف فجأة، لخَلَل فنّيّ في ناقل الحركة، فهُرع إليه أحدُهم، وبمحاولة سريعة منه، كان قد أصلحه.

وبينما كانت مريم ووالدتها قد تجاورتا البابَ الخارجيّ للبيت، وانزلقتا في الشارع الأمامي بغية الوُصُول إلى مجمّع بيع الألبسة والأحذية القابع على الطرف الثاني من الشارع.

أطلقَ الملاك هنا حسرةً كبيرة، ثمّ توقّف عن الكلام، ورفع رأسَهُ نحو رئيسه الملائكي، وقال بحسرة وغضب ظاهر على وجهه: لو لم تتأخّر، لما كان حصل هذا كلّه. ثمّ أكمل، كان هناك ما أخَّر عُبُورهما الشارع.

من سوء حظّها أنها التقتْ جارتها اللحوحة، التي دائماً ما كانت تهوى الكلام، وراحت تشرع في السؤال عن أحوالها وأُمُور حياتها، وهي الأخرى بدورها استرسلتْ في الحديث عن كلّ ما شطح كخاطرة في بالها، واستعرضتْها. ثمّ سألت الجارة عن نيّة خُرُوجهما في مثل هذا الوقت، فأصابَ والدةَ مريم إسهالٌ فمويٌّ، وراحت تُسهب في الحديث عن ابنتها، ممّا دعاهما إلى التأخّر في عُبُور الشارع، والوُصُول إلى مجمع بيع الألبسة، بينما كان سائق العجلة المفخّخة قد ماطل في عُبُور نقطة تفتيش عسكرية، وهو يُردِّد ما يحفظه من آيات قرآنية، كان قد ادّخرها لمثل هذا الموقف، وبينما هو كذلك، سألهم صاحب المكتب الملائكيّ، إن كانت وصلتْ روح هذا السائق؟

وجاءت الإجابة من ملاك كان يقف في آخر صفّ الملائكة، وهو مسؤول سجلّ تدوين الوُصُول، أخبره أن روح السائق قد اختفتْ!! ولم يتمّ العُثُور عليها حتّى الآن. ثمّ سأله عن مريم إن كانت قد وصلتْ. فأجابه نعم، وهي لا تزال تبكي على الحذاء.

ثمّ أكملَ المَلاكُ المتحدّث سَرْد ما سجّلتْ كاميرته، إلى أن اجتاز المفخّخ نقطة التفتيش دون أن يعترضَ طريقه أحد، وتوجّه إلى مكان الحادث، ليفتعلَ هذا الدمار كلّه.

نَهَضَ صاحب المكتب الملائكي الأبيض فارداً جناحَيْه على طولهما ممسكاً تقريرَ مريم بين يَدَيْه وهو لا يزال مقطباً حاجبَيْه، يمسحُ قطرات من العَرَق كانت قد بلّلتْ ريشَه الذي بدا فضياً أكثر من بياضه، وأخبر الجميع:

لو أن شيئاً واحداً كان قد حَصَلَ بشكل مختلف.

لو أن مريمَ لم تفقد شريطَ شَعرِها المذهّب.

ولو أن الشاحنة تأخّرت أكثرَ من ذلك.

ولو أن والدتها لم تتأخّر عند عُبُور الشارع.

ولو أن ناقل الحركة تعطّل نهائياً.

ولو أن نقطة التفتيش تحقّقتْ من الشاحنة قبل مُرُورها.

لكانت الآن مريم على قَيْد الحياة.

لكانت الآن على قَيْد النُّمُوّ. وهي تلفُّ رقبة دبّها الصوفي بشريط شَعرِها المذهّب. وفي كل مرّة تنساه، لكان ينطق الدب، ويقول لها: ها هو شريطكِ حول عنقي. لكنْ، لا جدوى من التّمنّي في مثل هذا الواقع السماويّ غير القابل للاعتراض من قِبَلِ أيّ كائن. خاصة أنه يعلم خائنةَ الأعين، وما تخفي الصدور.

أن تعترضَ هو أنك تعرفُ ما تريدُ، هو أنكَ تعرف معنى الحُرّيّة وقيمتَها، وعدم الاعتراض على كلّ ما لا يناسب المنطق هو كَسَل متراكم، يُسبّب ضُمُوراً حسّياً في حاجتكَ للتصريح عن ذاتكَ. وها هو صاحب المكتب الملائكيّ يقف مصنّماً أمام تقرير مريم، لا يمكنه حتّى أن يفكّر بأيّ اعتراض، أو أن يقودَ مسيرةَ اعتراض سماوية على ما تُصدر من قرارات تجاه أصحاب هذه التقارير المرفوعة إليهم.

وقتذاك فكَّرَ الملاكُ الرئيس في جَمْع التقارير، وحَمْلها كفعالية اعتراضية على ما يجري، مع رَفْع صور الضحايا في السماء بمسيرة استنكارية، يقودُها هو والملائكة المتأثّرون معه لما حَدَثَ للكرادة، وحاول

أن يُخبرَ الملائكة الأقلّ منه شأناً بفكرته حول التظاهرة المُزمَع انطلاقها في السماء، لكنه، وقبل أن يُكملَ الفكرةَ، جاء أمرَ إعفائه من مكتبه الملائكيّ، وبُتِرَتْ أجنحتُهُ، وتمّ نقلُه إلى مكان آخر. وهُدِمَ مكتبُهُ الرّخاميّ الأبيض.

عبّاس ترامادول ..

مِن عبّاس ترامادول سابقاً إلى عبّاس حامي العرض، هذا ما صار إليه اسمه من قِبَل سكّان الحيّ، بعد أن انتمى إلى إحدى الفصائل المسلّحة المدافعة عن عرضنا وشرفنا، كما يحبّ أن يسمّيها البعض، دون أيّ اعتراض منّا، خوفاً على هذا العرض من أن يُنتهَكَ من حُماته.

هذا اللقبُ لم يمحُ تاريخ عبّاس المطيّن، وماضيه الترامادولي، وراح البعضُ ممّنْ كانوا يكنّون له العداء، يُشوِّهون صورتَهُ الجهادية بشكل هَمْسيٍ ونبسي. لكن ذلك لم يؤثّر على صورته الجديدة التي أخذت تتغيّر شيئاً فشيئاً بين أهالي الحيّ، خاصة بعد أن بدأ بالحديث عن بُطُولاته التي يخوضها مع الفصيل المُسلّح الذي ينتمي إليه، فمنهم مَنْ صدَّق عبّاساً، ومنهم مَنْ لم يُصدِّق كلمةً واحدة ممّا يقولُه في مجلسه الذي اعتاد أن يعقدَه قرب ورشة مالك الحدّاد، والذي كان بدوره يُبغِضُ أولئك الذين كانوا يُتخمُون أذنَيْه بالنصائح، وحثّه على تَرْك شُرب العَرَق، الذي كان سَبَبَ صبره على بقائه في مثل هذه المهنة، حسبما كان يقول.

مالك الحدّاد هو الوحيد الذي كان يعرف عبّاس أكثر من البقيّة، باعتبارهما أقدمَ صديقَيْن في الحيّ، لكن انتماء عبّاس الجديد، جعل مالك يأخذ موقفاً منه، ولا أحد يعلم إن كان هناك سَبَبٌ آخر خلفَ ابتعادهما عن بعض.

لكن مجلس عبّاس أخذ يزدهر، وكل مَنْ يحاول البحثَ عنه لن يتعبَ في إيجاده، الكل يتوجّهون إلى مجلسه، وبالأخصّ أولئك الشباب، الذين كانوا يتجمهرون من حوله، ويروحون بعد ذلك مستأثّرين في إعادة كلّ ما رواه ترامادول. يُشبهون بسلوكهم هذا مشاهدي الأفلام السينمائيّة داخلَ صالات العرض، حين يُعيد أحدُهم سَرْدَ أحداث الفيلم، خاصة تلك الأفلام الهندية، من دون أن يعيَ أن الجميع قد شاهدوا الفيلم سويةً، ولا داعي لإعادة سَرْد أحداثه من جديد.

وما انقطعَ عبّاس عن سَرْد قصصه بطريقة، يستخدم فيها الإثارة والتهويل، لتبيان شدّة بعض المواقف التي كان يمرّ بها في قتالِهِ ضدّ مَنْ يُسمّيهم الكفّار، أو التنظيمات الإرهابيّة بصوت عال، متقصّداً بهذا الفعل إسماعَ مالك الحدّاد قصصه وبُطُولاته عند رَفْع صوته، لكن الأخير كان منشغلاً وسط ضجيج تقطيع الحديد غير آبهٍ بكل ما يرويه ترامادول من بُطُولات.

لم ينسَ بعض أهالي الحيّ فتحي المصري، المقتول من دون أيّ ذنب على يد عبّاس، عندما كان يعملُ سائق شفل في البلدية، وهو كعادتِهِ مُحلِّق في عالمه الوردي، من مكان عالٍ مُترئِّساً قيادة هذا الشفل الكبير، لإنجاز بعض مهامّ البلدية، كان الناس يتحاشونه عندما يرونه يقود الشفل، ولكنْ، في يوم من الأيّام عندما كان يقود ماكنته العملاقة بتهوُّر، ودون أن يحسب حساب قُطْر استدارةِ آليّته بالقُرب من جدار نزل فتحي المصري، هَدَمَ الجدارَ الخارجي للنزل، عندها هُرع الناس لاكتشاف سبب الصوت الذي أرعبَهُم، وبعضهم ظلَّ مذهولاً لمنظر سُقُوط الجدار، والبعضُ الآخر هُرع لاخراج جثّة فتحي المسكين القابعة تحت أنقاض الجدار. كان فتحي

قد تعوَّد أن يجلس في مثل هذا المكان عصر كلّ يوم، ليُشاهدَ حمائم الزينة داخل حديقتِهِ المنزلية. فصاحت الصوائحُ، وتعالت أصوات الأطفال من داخل النُّزل، وهرب عبّاس مثل طير قطا، ليعبرَ الشارع العامّ، الفاصلَ بين بيت فتحي وبيتِه القابع على الجانب الآخر من الشارع، تاركاً آليّته على حالها، غائصةً وسط الجدار.

لم يرَ أحد عبّاس لمدّة أسبوع كامل بعد الحادثة، ولم يشكّ البعض في وُجُوده داخل الحيّ. وراح البعض الآخر يُفسّر ما حَصَلَ على أنه قضاءٌ وقَدَرٌ، وآخرون من الناس اتّهموا عبّاس بالسُّكْر الدائم لإدمانه على حبّاته الأليفة، مُعلِّلين ذلك بغيابه عن الوعي بشكل مستمرّ، ما أدّى إلى تقصيره في عمله، وقَتْل فتحي المصري. وما هي إلا أيّام حتّى سمعْنا أن أهل ترامادول عوَّضوا عائلة المقتول سهواً، بمبلغ مادّيّ لتفادي إقامة دعوى في مركز الشرطة، وتخصيص معاش مستمرّ لزوجته التي أُصيبت بنوبة قلبيّة بعد تلك الحادثة، لكن ذلك لم يمنعْ دائرة البلدية من إقالة عبّاس لتقصيره في عمله، خاصة بعد أن علم مديرُ البلدية من أحد المشتكين، أن عبّاس كان يُمارس عَمَلَهُ وهو تحت تأثير المخدّر. ولم يتوانَ الأخير من فَصْله، وعدم صَرْف معاشه الشهري، أو أيّ مستحقّ له.

هذه الذكريات كلّها صارت نزراً بسيطاً أمام ما يرويه عبّاس من بُطُولات، اعتاد الناس سماعها، وتصديقها، لما فيها من إثارة ومغامرة وتشويق. ولم يعدْ أهالي الحيّ يتذكّرون عبّاس القديم، لأنّ عبّاس الجديدَ ألهمَهُم أكثر.

ولم يستمرّ الحال على ما هو عليه، فبعد أن التحقَ عبّاس بفصيله، جيء بجثّته بعد يوم واحد من ذهابه. ونُقِلَ خبرُ استشهاده بقصّةٍ، مفادها أنّه كان قد هاجم وكراً للإرهابيين بمُفرده، من غير أن يستعينَ بأحد من

أصدقائه المقاتلين، ومن غير أن يأخذ أمراً من مسؤوله أو آمره العسكري. فَقَتَلَ مقتلةً منهم، إلى أن صوّب أحد الإرهابيين بندقيّة إلى صدره، وأرداه قتيلاً، بعد أن قَتَلَ منهم عشرة أشخاص. حاولتُ أن أُصدِّق مثل هذا الخبر، لكنني لم أستوعب عبّاساً بهذا الشكل، عشرة أشخاص ليس بالشيء القليل، بالنسبة لعبّاس. لكنّني كنتُ مُجبَراً على تصديّق ذلك بعد أن أكّد كلّ أهل الحيّ صحّة الرواية.

إلا أن مالك الحدّاد وحده كان يعرف قصّة مقتل عبّاس، عن طريق قريب له، كان ينتمي لذات الفصيل المسلّح الذي انتمى إليه ذاك الأخير. وأخبره أن عبّاس كان قد تناول شريطاً كاملاً من الترامادول في تلك الليلة، بينما كان مشغولاً برواية قصصه البُطُولية، وكنا لا نصدِّق ما يقوله، لأنه كان يعمل في بهو الطعام الخاص بالفصيل، بصفة غاسل صُحُون، وبعد أن استفزَّه أحدُهم بضحكة جلجلت المكان حتّى كاد العدوّ أن يسمعَها مستفزّاً بها مشاعر عبّاس، راح الأخير وهو في حالة يُرثى لها، وليؤكّد صِدْق كلامه، حمل بندقيّةً، كانت قد أخذت مكانها فوق طاولة طعام حديديّة، وهي لأحد أبناء فصيله، وركض باتّجاه الساتر الفاصل بينهم وبين قرية - كان الإرهابيون يتمركزون فيها - وقبل أن يبلغَ القرية، جاءت سيّارة مسرعة، فصدمتْ عبّاس، وأودتْ بحياته. عندها فارق الحياة، وتبعثرتْ حُبُوب الترامادول من جيب سترته. وحدَه مالك الحدّاد مَنْ كان يعرف قصّة موت عبّاس الحقيقيّة، ولم يتكلّم بذلك واضعاً بالحسبان أن عبّاس كان صديقه في يوم ما.

وصار عبّاس حديث أهل الحيّ والأحياء القريبة. وأخذت الأحداثُ تتسارعُ ومالك الحدّاد قابع في ورشة حدادته مبتسماً، لا يعلم أيّ شخصٍ سبب ابتسامته، أو ما الداعي منها.

ورَفَضَ والدُ عبّاس أن يدفنَ عبّاسه بعيداً عنه، فعمد إلى مواراة جثّته في ثرى قطعة أرض، كان اشتراها عبّاس من قبلُ، قربَ بيت والده، ليبني عليها بيتَهُ، ولم يعلم أنها في يوم ما ستكون قبرَه الذي سيزورهُ فيه الناس بقَصْد التّبرّك، وطلب حلّ المشاكل، بجاه عبّاس عند الله. بَيد أنَّ الكلّ كان يتحقّق لهم ما طَلَبُوه من قبره، حقيقة لا يمكن إنكار كرامات عبّاس التي أخذ صداها ينتشرُ داخل سكّان المناطق البعيدة، وراح الكلّ يقصدُ قبرَه بعد أن عرف بكراماته وقضاء الحاجات.

حاول بعض الناس أن يُقنعَ والد عبّاس بإقامة مزار للقبر، وأن يُوسِّعَ المكان بشراء الأرض المجاورة منه. لكنّه امتنع عن مثل هذا الفعل، وتبرَّع صاحب الأرض المجاورة لقبر عبّاس بأرضه إلى الوالد، وشارك البعض ممّنْ قُضيت حوائجُهُم ببركَة عبّاس عند الله ببناء سورٍ خارجيّ، وحمّامات صحّيّة، ومُصلّى بجانب القبر. ما دعا الناس للتوافد إلى المكان. وأخذ الكلّ يتحدَّث بكراماته. عبّاس هو وحدَه مَنْ يستطيعُ قضاءَ الحاجات، وفكّ السُّحُور، وإبراء الأكمه والضرير، وإعادة الغائب، وشفاء المريض. ووُضِعَتْ يافطة كبيرة على بوّابة الدُّخُول، كُتب عليها مزار (السيّد عبّاس). حتّى وصلتْ أخبار السيّد عبّاس قاضي الحاجات إلى دول الخليج، وجاء بعضهم لزيارته، وتقديم النُّذُور والأضاحي لقضاء حوائجهم، وتبرّع أحدُهم بعد أن تحقّق مَطلَبُهُ بشبّاك من الفضّة، أخذ مكانه فوق القبر، وبنى آخر قبّة لازوردية فوق مقامه، وتبرَّع أحدُهم ببناء أواوين، تُحيط برواق المكان من الداخل، وتمّ توسعة المكان بشراء قطع الأراضي المحيطة به حتّى تحوّل قبر عبّاس ترامادول إلى مقام كبير، يقصدُه الناس من كلّ بقاع الأرض.

حقيقة حتّى مَنْ كانت عاقراً قد حملتْ بمجرّد زيارتها لقبر عبّاس. وراح

الناس يقطعون النُّذُور باسم عبّاس، وكل مَنْ يُقسم عليه أن يؤدِّي قَسَمَهُ برُوح السيّد عبّاس قاضي الحاجات. وصدَّق حتّى من كان يُكذِّب عبّاس في حديثه سابقاً بكراماته، إلّا مالك الحدّاد وحدَه مَنْ بقي في مكانه، ولم يقصدْ قبرَ عبّاس لطَلَب أيّ حاجة، بل كان يزور قبرَ صديقه في كلّ ليلة، ليضعَ حبّة الترامادول.

حدائقُ الصمغ

في هذا البلد السّرّيّ يمكنني ممارسة كل العادات المكشوفة، لهذا فضّلتُ البقاء فيه. رغم أنهم يحبُّون قَطْعَ الرُّؤُوس هنا، بطريقة «الفايكنغ»، لكنني أغلقتُ نوافذي، ورحتُ أُعلِّم ابني القراءة، حتّى يقرأ لي الصُّحُفَ عندما يصيبني العمى. وبالفعل، فَقَدْتُ البصرَ، وفَقَدْتُ ولدي، وشكرتُ اللهَ كثيراً على نعمة العمى، لأني لم أشاهد رأسَه وهو يتدحرج.

أمضيتُ حياتي في انقطاع مُطلَق عن الناس، لم يكن يعني لي أن أُغمض عيني أو أفتحها، كنت أُتابع أنفاسي ونبض قلبي. ولم أكن أتخيّلُ أيّ شيء، لأنّني نسيتُ الأشكال. المحاربون القدامى عادةً ما ينتهون على هذا الشكل. أصواتُ القصف لا تزال في ذاكرتي. قد أنساها جميعها، لكن ذاكرتي تمتنع عن نسيان شكل الحرب. وبالفعل انتهت الحربُ، وكنتُ متشوّقاً لعودتي إلى بلدتي وزوجتي وطفلي الذي صار شابّاً. كانت زوجتي تبعثُ لي بصُوره داخل ظُرُوف الرسائل التي تبعثُها، كنتُ أراه يكبرُ داخل الصُّور، وعند عودتي، حَدَثَ ما لم أكن أتوقّعه، كانت بلدتي مُشوَّهة بلا إشارات أو فهارس، لم تكن هي ذاتها التي ترعرعتُ فيها، وقضيتُ أجملَ أيّام شبابي بين أروقَتِها، بدا ضوء مصابيحها شاحباً، طُيُورها تختال تحت دانتيلات الظُّلمة، ملامحُ الشوارع ناقصة، ولم أتعرّف عليها. كان الكلّ يتخفّى، وبعض الناس يتغامزون بغير كلام. لم تُخبرني

زوجتي برسائلها لي عن هذا التّحوّل في البلدة. لم تُخبرني عن المسلّحين الذين طلبوا منّي إبراز أوراقي الثبوتية عند دُخُولي للبلدة، أخبرتُهم عن الحرب التي ابتلعتْ نصف عمري ونصف أصحابي، لكنهم ضحكوا.

أعتقدُ أن قصّتي بدأت في ذلك اليوم، عند عودتي إلى البلدة، بعد تجاوُزي نقطةَ تفتيش المسلّحين، ودُخُولي لحديقة الصمغ، كنتُ أشاهد هذا النوع من الحدائق لأوّلِ مرّةٍ، كانت فريدةً من نوعها، شكلها مميّز، لكنها لزجة، حاولتُ قطفَ زهرة صفراء، كانت خالية من الأشواك الناتئة، وبأوراق تُشبه مَلمسَ الشامواه. كانت زهرةً سِحْريّة، لم تُمانع يدي التي اجترَّتْها من ساقها الخضراء. وحملتُها في يدي عند عودتي بعد حرب طويلة، لكنها تعوّدت على مكانها في يدي، ولم تتركني، ومنذ ذلك اليوم وهي تلتصقُ فيها، كانت الأنثى الوحيدة التي أعرفُها بعد زوجتي التي أكلناها أنا وابني بعد أن حاصر المسلّحون بلدتنا. كانت تنمو وهي ملتصقة بيدي، حتّى شعرتُ ذات صباح أن الأشواك بدأت تنمو بجسدي. وكنتُ مُرغَماً على تحمُّل رُؤُوسها المدبّبة، ورائحتها الكريهة التي بشّتْها فيما بعد، ولم أرتدِ ثيابي، لأنها كانت تُمزِّقها. ولقّبني الناسُ في بلدتنا بالرجل الزهرة.

لم يكن يضايقُني شكلي الذي تعوّدتُ عليه فيما بعد، بقدر ما يضايقُني عدم معاشرتي لزوجتي، لم اكن أستطعْ لمسها، لأن جسدي كان مليئاً، بالأشواك، وكلّما اقتربتُ منها كانت تُوخَز بأشواكي، وتنفرُ من رائحتي، ما أدّى إلى أن تعزلَ نفسها عنّي في فراشٍ آخر. كنتُ أشتاقُها وأتألم لعدم مقدرتي على لمسها، كانت تتأفّف دائماً عندما تشاهدُ أثاث المنزل يتمزّق حين أجلسُ عليه، أحسستُ كم أنها كانت ترغبُ

في طَرْدي من المنزل، كان واضحاً من نظرات ازدرائها لي. ما هذا الحظّ الأعمى؟! طوال سنين الحرب وأنا أشتاقُها، وها هي اليوم ترقدُ بعيداً عنّي خوفاً من جسدي النابت بالأشواك. كانت دائماً ما تقول لي: مكانُكَ في الحديقة، ولا مكانَ لكَ داخلَ البيت. لأوّل مرّة، أُجرِّب شُعُور النبتة. لم أكن أتخيَّل هذا، بل كانت حقيقة، أنا نبتةٌ بشكل إنسان، يمكن أن أكون كائناً جديداً، أو نوعاً لحياة غير واضحة الملامح، ويمكن أن يكون اسمي نبتان!! كائنٌ جديدٌ بين النبتة والإنسان.

«نبتان»... قد يُذكَر هذا الاسم بعد ألف عام من الآن، باعتباري اكتشاف البلدة الجديد، وقد تدخلُ بلدتي التاريخَ من خلالي، ما دام أهل البلدة تعوّدوا أن ينادوني بالرجل الزهرة. ولم أكنْ أعارضهم، لأنها كانت حقيقةً.

هذا كلّه، ولا تزال الزهرة ثابتة في مكانها، كانت تجفلُ كلّما حاولتُ لمسها، وتتمايلُ كلّما كلّمتُها، وتشعرُ بما أنوي فعْله، حتّى عندما أنوي اقتلاعها، فتصير قوية التّجذّر عند شُعُورها بالخوف، وتتحوّل أوراقُها إلى لدائن حديدية، فتيبس يدي، وأنا أستشعرُ قوّةَ جُذُورها وهي تتصلّب داخلَ أوردتي، كانت قويةً، لدرجة لم أستطعْ أن أقتلعَها من وريدي، بعد محاولاتي كلها في انتزاعها، التي أدَّتْ إلى نزيفٍ داخلي، فاستسلمتُ لقَدَري، وسلَّمتُ يدي لها، وانعزلتُ على مقعد خشبيّ داخل المنزل، حتّى لا أُغضب زوجتي في جُلُوسي على أثاث غرفة الضُّيُوف، كي لا يتمزّق. كل شيءٍ تغيَّر، جسدي صار مثل صبّارة صحراويّة، وذقني عبارة عن كومٍ كَثٍّ من الأشواك، كنتُ أخاف أن أُمسكَ بالأشياء الطّريّة، كي لا تتمزّق، كنتُ أتحسّس ثقلَ جسدي، بينما كانت تنطُّ الزهرة من وريدي

فرحةً، وأنا أعلم أنْ لا جدوى من مراجعة أيّ طبيبٍ. وأنا على دراية أن علاجي سيكون باقتلاع الزهرة، ولا سبيلَ أمامي في التَّخلّص منها سوى قَطْع وريدي، أو قَطْع يدي، لكنني كنتُ أتردّد في فعْل ذلك. لم أكن أقتربُ من المرآة، بل كنتُ أشاهد قرَفي في عُيُون زوجتي التي كانت تنظرُ إليّ باشمئزاز. وولدي الذي صار يُلازمُ غرفَتَه خوفاً من أن يراني على هذه الحال.

كان الوقت يمرّ بشكل بطيءٍ، وأنا أتكوّم على الكرسيّ الخشبيّ، بوخزي وإبري، أشاهد عجيزةَ زوجتي وهي تترجرجُ عند مُرُورها من أمامي، لم أستطعْ حينها أن أتمالكَ نفسي، وأنا أحضنُها، لتخرَّ بعدها ميتة على الأرض. حاولتُ أن أحملَها عدّة مرّات، لكنها كانت تتمزّق إلى أشلاء. وبلا وعي منّي، ركضتُ إلى حديقة الصمغ، لأنتقمَ من كلّ نباتاتِها اللزجة، فأحرقتُها إلى آخر عشبة فيها. عندها لاحظتُ زهرتي الصفراء تذبلُ، وأشواكي تضمرُ، حتّى تلاشتْ منّي، وسقطتْ زهرتي ذابلة. وعدتُ إلى بيتي عارياً بكلّ فخر.

كنا قد استفدنا من لحمها وشحمها أنا وولدي الذي فضّلني على نفسه بتناوُل بعض الأعضاء. كان يُفضِّل أكلَ اليَدَيْن وأرساغَ قَدَمَيْها، وأنا أكلتُ ما تبقّى من فخذَيْها، وادّخرتُ رقبتَها في الثلاجة، لأُمزمِزَها طيلةَ الوقت. لولا زوجتي لكنا متْنا من الجوع، خاصة أن المسلّحين لا يزالون يُطوِّقون البلدةَ، ويقتلون كلّ مَنْ يحاولُ الخُرُوج منها، هم أنفسهم كانوا مثلنا، يعيشون بيننا، لكنّ تلك اللوثةَ التي أصابتْهم حوَّلتْهم إلى ما هم عليه، وغيّرتْ أشكالهم إلى أشكال مُخيفة. معتقدين أنهم يدافعون عنا، ويجنّبوننا تلك الأفكار كلها التي كانت تجيئنا من البلدات المجاورة. وزرعوا

حديقةَ صمغهم. وكنتُ مُهدّداً بالقَتْل، لأنني أحرقتُ تلك الحديقة. كانوا لزجين مثلها. بذُقُون طويلة متخشّبة، نظراتُهم من حديد، ينبتُ الصمّغ عند أقدامِهم حين يمرّون في شوارع البلدة، وهم يحرقون بيوتَ مَنْ يعارضونهم، وينهبونها، ويُحوِّلون معارضيهم إلى نباتاتٍ صمغيةٍ في حديقتهم، شاهدتُ مرّة كيف حوَّلَ كبيرُهم الذي علَّمَهم الصمغ رجلاً إلى نبتةٍ لزجةٍ، تتمطّط كلّما مرّ أحد بها. ما دعا الناس أن يبتعدوا عن تلك النبتة عند مُرُورهم بالقرب من الحديقة التي تقعُ في بداية الطريق السالك إلى الحيّ.

كنا نقطعُ كل طُرُق البلدات القريبة منا، ما عدا تلك البلدة التي كانت تُصدِّر لنا صناديق حبّات الصمغ. ليُوزِّعها الرجالُ المسلّحون على الناس، وعندما تظاهر أبناء البلدة على المسلّحين، وتجمهروا أمام إحدى حدائق الصمغ، وزّع المسلحون عليهم حبّات الصمغ المستورَدَة، وأجبروهم أن يلُوكُوها أمامهم. وبالفعل، كان هذا. وفي اليوم التالي، كانت قد اختفتْ كل أفواهِ المتظاهرين وكلّ مَنْ لاك حبّات الصمغ. وراح المسلّحون يضحكون. وهم ينظرون الناسَ بلا أفواه. وصارت عُقُوبة مَنْ يُخالفهم، رَمْيه في حديقة الصمغ، ليتحوّل إلى شجرة صمغ، أو أيّ نبتة لزجة أخرى.

لم أخرجْ من بيتي، واقتصدتُ في أكْل ما تبقّى من زوجتي مع ولدي، الذي لطالما حذّرتُهُ من الخُرُوج والاختلاط بالمسلّحين، لكنه كان يُعارضني، بينما فضَّلتْ بعضُ العوائل البقاءَ في بُيُوتها، يأكل بعضهم بعضاً. كانوا يلعبون لعبةَ القرعة. يكتبون أسماءَهم في أوراق صغيرة، ثمّ يطوونها، ويضعونها في علبة، وبعد أن يتمّ رجّ تلك العلبة. يتمّ اختيارُ ورقة، ومَنْ تقعُ عليه القرعة، يتمّ أَكْله، لتعيش البقيّة.

وأنا لا أزال أمزمزُ رقبةَ زوجتي المثلّجة، وأتخيّل آهاتِها في كل مرّة، وأُعيدُ رقبتها كلّما استشعرتُ حرارتها، لتبردَ من جديد. وعند إصابتي بالعمى، أخبرني بعض المسلّحين وهم يحملون جثّة ولدي، ليواروها في الحديقة، أن مزمزةَ الرقاب المجمّدة تُسبِّب العمى. وعوّضوني عن ولدي بكلبة لزجة، أسترشدُ بها طريقي، وأنا أسير داخل أزقّة بلدتي القديمة. كان اسم الكلبة (ناريا). وكانت كلبة عنيدة. دائماً ما تتقصّد إتاهتي في أزقةٍ فرعية، غير الأزقة التي توصلُني إلى بيتي.

رسالةٌ إلى الأرض

أنا من كوكب المرّيخ، أبلغُ من العمر٢٤ عاماً، وُلدت في ٢١٠٨ من أب عراقيّ الأصل، وأمّ أمريكية. في مستشفى بلوتو المرّيخي، والذي يُعدّ أوّل مستشفى تمّ إنشاؤه على الكوكب الجديد، بعد أن وصل جدّي إليه في بعثة (مارس وان). في العام ٢٠٢٥ وها أنا أبعث أولى رسائلي، علّكم تجدونها في هذه الزجاجة التي علّمني أبي أن أضعَ رسائلي فيها لكم.

كانت ولادة أبي خطوة جريئة من جدّي الذي كان يعملُ استشارياً في مجال تطوير مواقع الأنترنت وقواعد البيانات. ولم تكن الشركة الهولندية المنظِّمة للبعثة إلى المرّيخ موافقة على مثل هذه الخطوة. لكن تعلُّقه بشريكة حياته الأسيوية، التي تعرّف عليها في أثناء البعثة المرّيخيّة هو ما دَفَعَهُ أن يقيمَ علاقة، كانت نتيجتُها أبي غير الشّرعيّ. كان أبي مميّزاً بين سكّان المرّيخ الجدد، وكان الكلّ يُلقّبه بمشروع الخصوبة الجديد، عوضاً عن اسمه الذي لم يُنادِهِ به إلا القليل، وكان (باس لانسدروب) الرئيس التنفيذي لمنظّمة «مرّيخ واحد» يعرفه بـ (الأول). لأنه أوّل مولود مرّيخي من جنس البشر. وبعد ولادته، تأسّست دائرة الأحوال المَدَنية في الكوكب.

كانت «مارس وان» قد أعلنت في العام ٢٠١٢ نيّتها في إطلاق رحلة لكوكب المرّيخ، وإقامة مستعمرة بشرية أوّلية على الكوكب بحلول العام ٢٠٢٥ ، وتقدّم آنذاك أكثر من مئتي ألف شخص بطَلَبات السَّفَر، وقلَّصت القائمةَ مرَّتَيْن، لتصل إلى مئة اسم فقط.

وجرى تقسيم القائمة بين الرجال والنساء بالتساوي، وكان جدّي صاحب الـ ٣٨ عاماً، أحد أولئك المهاجرين إلى الكوكب الأحمر، وتمّ اختياره من بين الكثيرين ممّنْ تقدّموا للفوز بهذه البعثة، بعدها تلقّى تدريباً، مدّته سبع سنوات، يُكيِّفُهُ الاعتيادَ على المعيشة داخل مساكن خاصة، تعمل على بطّاريات شمسية الطاقة، أما الماء، فكان استخدامه لأكثر من مرّة في اليوم الواحد، مستعيناً بذلك على زراعة النباتات التي بدؤوا يقتاتون عليها، في بادئ الأمر.

كانت البعثة الأولى تجربة فريدة من نوعها، وبعد أن نجحتْ، توالت البعثات إلى الكوكب الأحمر من الأرض، وكان البقاء في الكوكب مشروطاً بعَدَم ذِكْر الأرض فيما بينهم، أو حتّى لأبنائهم. جاء هذا الشرط من الشركة المؤسِّسة لهذه البعثات. ولا أعلم ما الداعي لهذا الشرط. أو ما هو الداعي لكَتْم تصوّر تجاربهم الأولى. بالتأكيد، هناك ما يتمّ إخفاؤه.

أخبرني جدّي في إحدى المرّات، بينما كان يجلس على كرسيّ مصنوع من خشب الخيزران، كان قد أحضره معه من الأرض، أن مجيئه إلى هنا، هو عملية إنقاذ ما تبقّى من حيامنه المنوية، خاصة أنه كان يعرف أن الرحلة بلا عودة. لكنه قال إنه أراد لحيامنه أن تنمو في بيئة غير تلك البيئة الأرضية التي لا أعرف أيّ شيء عنها، أو عن عاداتها وتقاليدها، التي بالتأكيد ستكون مختلفة عن كل ما تعلّمتُه هنا. فأنا هنا لستُ سوى ما أرادوني أن أكونَ عليه. ورسالتي هذه هي لاكتشاف كلّ ما لم أتصوّره عن المكان الذي كان من الممكن أن أكون على سطحِهِ في يومٍ ما. كان جدّي دائم التّذمّر عندما يذكر الأرض، كنتُ أشعر أنه يحاول الهُرُوب من فكرة التفكّر أو التصوّر بما يخصّ كوكبه القديم.

حاولتُ أن أخلقَ أيّ حوار بيني وبينه، لكنه دائماً ما يسرحُ في غيمة من الصُّور من خلال نظراته المصوّبة في مساحة الفضاء. لا أعلم هل كان يتمنّى العودة، أو أنه يتساءل عمّا صار في كوكبه القديم. لم أكن أضع يدي على أيّ فكرة من افكاره. كان صموتاً، لدرجة أنه لم يذكر ماضيه بمفردة واحدة، تجعلنا، نحن أحفاده، نتصوّر أيّ شكل من أشكاله. ذكرياته عن أول نشأة له، عن مدرسته، مدينته، أو حتّى عن طقس الأرض ومناخها. سمعتُ من جدّ أحد أصدقائي الأفارقة أن هناك شطآنٍ، ومساحاتٍ واسعةً للمياه، لا يُرى آخرها.

كنتُ بحاجة لتصوُّر المنظر، لكني لم أستطعْ أن أتصوّر بركة مياه أكبر من بركة حمّام بيتنا المعدني. وفي يومٍ ما، حاولتُ أن أستفزّ جدّي، بينما كان يركّز نَظَرَهُ في نقطة، لا أعلم أين تقعُ في هذه المساحة الواسعة من الفراغ، وصرختُ أين يقع ذلك الكوكب الذي جئتُ منه؟؟

لكنه لم يأبهْ لصوتي العالي، والتفتَ إليّ بهدوء، وقال: لا أعلم، منذ سنوات، وأنا أبحث عنه بين كلّ تلك النُّجُوم، ولا أعرف طريقة العودة، لأنني لم أزرِ الأرض بعد أن وصلتُ إلى هنا.

- إذنْ، أخبرني، يا جدّي، عن شكل الكوكب؟ أو حتّى عن أمطاره؟

- من أين سمعتَ هذه الكلمة؟ قال جدّي.

- من جدّ صديقي. قال إن هناك أمطاراً، ولا أعلم كيف عليّ أن أتصوّر هذه الأمطار.

- لا تتصوّر ما لم تره، قال لي، بينما كان يحكّ مؤخّرة رأسه. وأضاف، إنها تشبهُ، إلى حدّ ما، دوش حمّام بيته. لكنها بشكل أكبر.

- هل تعني أن هناك أنابيب عملاقة، تنزلق المياه منها بشكل عامودي، لتنهمرَ علينا؟

لم يجبْني، ولم يتكلّم بعدها، ثمّ ابتسم، وراح يُحملق في الفراغ من جديد.

جدّي المنكفئ على وحدته أعُدُّه أكبر تساؤل لي داخل هذه المساحة الأنبوبية التي نشأتُ داخلها. لستُ أنا وحدي مَنْ يحاول أن يجدَ الإجابات، هناك مَنْ هم بعُمري، يحملون تساؤلاتي عينها في البحث عن أُصُولنا الأولى. أحياناً كنّا نلتقي ونتبادل الأسئلة أنا وأصدقائي داخلَ الصّفّ المدرسيّ، لكنّ مَنْ كانوا أكبر منا سناً كانوا يُحذّروننا من هذه الأفكار والأسئلة التي نحاولُ أن نجد لها أجوبة، تناسبها، أو تناسب قناعاتِنا، على الأقلّ. وها أنا أبعثُ لكم زجاجاتي المحمّلة بالأسئلة.

أرجو أن تكتبوا لي. عن أيّ شيء، اكتبوا لي عن مسالِكِكُم الأنبوبية. عن برَك سباحتِكم، أو عن أشجاركم، هل تعلو المترَيْن؟ تكلَّموا لي بشكل مفصّل عن سُقُوف حياتِكم المعدنية؟ وهل يتوفّر الأوكسجين لديكم، بشكل كبير؟ كما هو متوفّر هنا على سطح المرّيخ؟ أخبروني ما هو لون كَوكَبِكُم؟ هل هو أحمرُ، أو بلون آخر؟ فأنا لا أميّزُ لونَهُ من هنا، ولا أشاهدُه سوى نجم مثل باقي النُّجُوم. أخبروني عن حصان، أودّ أن أستفسر عنه؟ اسم صديقي حصان، دائماً ما كان يثيرني البحث عن معنى اسمه، بالتأكيد إن لهذا الاسم صلة بالأرض؟ اكتبوا لي عن أيّ شيء.

كنتُ أرصُّ أسئلتي داخلَ تلك الزجاجات، وأرميها خارج غرفتي المعدنية، قال لي أحد الأصدقاء إنه في يوم ما رمى علبةً معدنيةً،

وشاهدها تنطلقُ إلى الفضاء، لم أكن متيقّناً أن زجاجاتي ستصلُ الأرضَ، لكنْ، لكثرتها لا بد أن تصلَ إحداها، ورغم أنني لم أكن متيقّناً أن هناك مَنْ سيُجيبني، لكنني كنتُ لا أقطعُ الآمال، إضافة إلى ذلك، إن شبكة النت كانت مُراقَبَة من قِبَل مسؤولين في شركة «مارس وان». يعملون في غُرف رَصْد الاتّصالات الإلكترونية عن طريق الشبكة. يحجبُون المواقعَ التي لها علاقة بكوكب الأرض ومراقبة كل الاتّصالات، لم يكن أمامي غير زجاجات المرّيخ.

أكتبُ إليكم، وأنا أنظر إلى قمرَي المرّيخ فابوس وديموس، من داخل غرفتي الزجاجية، لأعرف ما شكل قَمَرِكُم؟ وما هو اسمه؟ أو ما شكل تلك الأمطار؟ وكيف تكون؟ وما الداعي لتكوّنها؟ ليست هي فقط، بل كلّ ما لا أستطيع أن أتصوّره، سأكتب عنه متسائلاً منكم، طالباً أن تُخبروني عنه. كيف يمكن أن تكون الأشكال من غير أن أتخيَّل صُورها الأولى، وماذا يمكن أن تعني لي معرفتها سوى بناء تصوُّر عن مكان نشأة جدّي المعترض على فَتْح قفْل ذاكرته القديمة. أكتبُ إليكم من كوكبي الأحمر. الأشياء كلّها أخذت هذا اللون الأحمر، حتّى بشرتنا اكتستْ من لون الكوكب. نحن حُمرٌ، شئنا أم أبينا.

حاولتُ أن أبحث عن إجابات الأسئلة المزروعة داخل حديقة رأسي، ورحتُ أسأل الجميع، جدّتي، وأمّي، لكني لم أحصل على أجوبة لأسئلتي. وفي يوم من الأيّام، حاولتُ أن أستفسرَ من أبي الذي لا يعلم أكثرَ ممّا أعلمه أنا من جدّي، عن بعثة المرّيخ الأولى، وأخبرني أنه سمع من جدّي أن رحلتَهم إلى المرّيخ تشبهُ رحلة نوح، مَنْ هو نوح؟ لا أعلم، قال أبي، وأعتقد أنه مهاجر، قام برحلة مشابهة لرحلتنا داخل الأرض، لكنه ارتحل على ظهر

سفينة، وهو يحمل داخل تلك السفينة زوج من كل نوع من الإناث والذُّكُور، ليبدأ الحياة في مكان جديد، مكان آخر على سطح كوكبنا القديم. تيقّنتُ من بعد قصّة أبي أن هناك مَنْ قام بهجرة تسبق هجرتنا، لكنْ، ما الداعي لتلك الهجرة؟ قد تكون الأسباب متشابهة؟

حملتُ إجابةَ أبي تحت إبط تفكيري، وقفزتُ من مكاني، لأصلَ بيت جدّي عن طريق مسالك دودية، تشبهُ بهيئتها الأنابيب الملتوية. طُرُقُ التواصل هنا تتمّ من خلال تلك الأنابيب، لأن درجة الحرارة تنخفضُ في بعض الأحيان إلى أقلّ من خمسين درجة تحت الصفر، ولا يمكن التّنقّل إلا عن طريق تلك الأنابيب. كانت وحدات السَّكَن متشابهة، كلها تتكوّن من غرف متلاصقة فيما بينها، تتوسّطها صالة، سقفها من الزجاج القابل لتحمُّل أقصى الظُّرُوف. كان جدّي يجلس وسط تلك الصالة على كرسيّه الخيزرانيّ الهزّاز، يرمقُ النُّجُوم من خلال سقفه الزجاجيّ. سألتُهُ عن نوح أوّل ما دخلتُ إليه. ولم يتباطأ في الجواب، أخبرني أنه شخصٌ انتقل للعيش في مكان آخر، بعد أن تنبّأ بفيضان عظيم. لكني وجدتُ هذه الإجابة لا تروي عَطَشَ أسئلتي، وحاولتُ أن أستفهم أكثر، إن كانت بعثة المرّيخ الأولى تشبهُ إلى حدّ ما رحلة نوح.

فاستدرك كلامه، وأضاف عليه، وهو يعتدل في جُلُوسه مغادراً منظر النُّجُوم إلى وجهي وهو يتفحّصه، وكأنه يراني للمرّة الأولى. ثمّ أخبرني أنها رحلةُ البحث عن الطمأنينة، في مكان بعيد عن كل ما كان يحدث هناك.

- هل تقصد الأرض؟ قلتُ.

- نعم، إنها الأرض.

ثمّ أضاف على كلامه؛ إن العالم هناك يموت .. يموت بشكل تدريجي. ذات يوم، وقبل عشرات الأعوام دخل الموت إلى قريتنا، على شكل رجل بلحية طويلة، كنا قبله نعيش بسلام، كانت هيئته مختلفة، مثل مَنْ جاء من عالم آخر، يحمل سلاحاً بيده.

- ما هو السلاح، يا جدّي؟ قلتُ.

- إنه كل ما يمكن أن يفتكَ بالآخر، ويتسبّب بموته.

ها نحن نجلب إليكم أعظم تعاليم الخليقة، وأسمى ما توصّل إليه الإنسان بعد كل هذه الأجيال. بعد أن كفرتُم بالإله، وأهنتُم تعاليم السماء. قال صاحب اللحية الطويلة.

- ألسنا في السماء، يا جدّي؟

- نعم، لكنهم لم يعوا يوماً أننا سنسكن السماء.

وراحوا يزعقون، ويُخيفوننا، وهم يُوجّهون أصابعهم إلينا بفَرْز الأطفال عن النساء. كنا نرتجف خوفاً ووَجَلاً حين طلبوا منّا نحن الكَفَرة في نَظَرهم أن نسجدَ أمامهم، نردّد تلك التوبة التي طلبوها منا. لكنني لم أعِ معان تلك الكلمات حينها. ومن شدّة خوفي ردّدتُها.

وبعد أن ردّدنا توبَتَنا، صرنا جزءاً من أولئك الذين نقلوا الموتَ إلى قريتنا. البعض منا استطاع أن يهربَ من القرية، والبعضُ الآخر انخرط معهم، حتّى بعض الأطفال من أصدقائي صاروا يحملون السلاح، ويهدّدونني به، لكني تعوّدتُ على مثل تلك التّصرّفات، وكبرتُ داخل غرفة.

في تلك الغرفة، غادرتُ أجمل أيّام طفولتي التي لم أفهم منها شيئاً،

ما يهمّ أنني كنتُ على قيد البقاء. كنتُ أنمو في غرفة، أكبر داخلها مثل أيّ برعم، نحاول زراعته هنا داخل غرفة معدنية، استغربتُ شَعرَ ذقني وهو ينبتُ قبلَ شَعر عانتي، يمكن أن يكون واعزُ الخوف هو ما دعا شَعْرَ الذقن أن ينطّ في غير أوانه. وبعد أن استشعرتُ ضيقي من ذقني التي لم يكن من الممكن أن أشذّبها، طلبت منّي والدتي أن ارتحل إلى قرية أخرى، قرية لم يكن قد وصل إليها أصحاب اللّحى غير المشذّبة الأطراف. فغادرتُ في ليلة حالكة السواد، أحمل خوفي وقلقي وذكرياتي الأولى في حقيبة، تنطّ رؤوس الذكريات منها موجّهة أنظارها إلى قريتي القديمة. ولم أعرف بعدَها مصائر أهلي وإخوتي وجيراني.

- هل كنتُم تعيشون في الأنابيب، يا جدّي؟

- بل كنا نعيش المساحات الواسعة.

هنا استغربتُ لعبارته الأخيرة، ولكني حتّى لا أقاطعه أكثر من ذلك، طلبتُ منه أن يُكملَ، ووعدت أن لا أقاطعَهُ مرّة أخرى. وراح يسرد ما تبقّى في ذاكرته المتيبّسة ندى ذكريات انتقاله من قريته القديمة إلى قرية ملوّنة، كما أخبرني.

وأضاف على كلامه أن الأرض هناك، حيث كنتُ أقيم فيما مضى، قال هذا وهو يشير بأصبعه إلى النُّجُوم، ثمّ أردفَ؛ هناك مَنْ يفكّر في ضَبْط المساحات على أساس توزيع السّكّان، مَنْ يفكّر في إقامة الحُرُوب، كلّما حَدَثَ استشعار بزيادة العدد للحفاظ على ضبط النسب، ربّما سيقف كلّ مئة شخص على متر مربّع واحد، حُرُوبهم دائماً ما كانت تُحافظ على أن لا يزيد المتر سنتيماً واحداً، كان لا بد من الحُرُوب، في قريتي القديمة،

لأنهم يتزايدون بشكل سريع، العالم يتزاوج، العالم يُنجبُ، العالم يموتُ، وأغلب الأموات هناك هم سكّان العالم الباهت، أو ما نسمّيه بالجزء الرّثّ من الكوكب، والذكريات شاهدة على توالي الأجيال والحقب. نحن لا نزال نحمل شيئاً من ذلك الجرح الأزلي، رغم عُبُورنا إلى كوكب آخر.

وبعد أن أصبحتُ جزءاً من قريتي الجديدة، شاءت الصُّدف أن تُقبلَ استمارتي التي قدّمتُها لبعثة مشروع « مارس وان « في الارتحال إلى كوكب آخر، وبعد أن عشتُ رزحاً طويلاً في قريتي الجديدة، أردتُ الرحيل بعيداً عن الوطن وقَطْع الحبل السّرّيّ الذي يربطني به. فكّرتُ في بداية جديدة، بداية مشروطة بالعُزلة التي أشعر بها الآن، ورغم البعثات التي توالتْ وأعداد الناس التي تزايدتْ، لكني دائماً كنتُ أنظرُ إلى هناك، أعدُّ النُّجُوم والكواكب، وأميّز أكبرها من أصغرها، متسائلاً عن مصير إخوتي، أمّي، جدّتي، أبي الذي لا أعلم إلى أيّ جهة صار؟ هل هو معهم؟ أم أنه غادر إلى قرية أخرى. قال هذا، ثمّ أسندَ ظَهْرَهُ إلى كرسيّه الهزّاز، وراح يُحملقُ في النُّجُوم مرّة ثانية، لم أشأ أن أطرح أيّ سؤال بعدها، وتأكّدتُ أنه راح يبحث بعينَيْه عن كوكبه القديم، متأمّلاً وجوه إخوانه ووالدته التي لم يعرفْ أيّ شيءٍ عنها بعد أوّل فراق لهما. فتركتُهُ في خلوته، ينظر من خلال سقف غرفته الزجاجي إلى النُّجُوم، انسحبتُ ببطءٍ، وانزلقتُ بمسلك أنبوبي إلى حيث سَكَننا الذي لا يبعدُ مسافةً بعيدةً عنه، حتّى وجدتُ بعضَ أفراد الأمن البيئي المسؤولين عن نظافة بيئة الكوكب، وهم يتساءلون عن تلّ الزجاجات المَرمية خلف سَكَننا، وما سبب تجمّعها في هذا المكان.

سردابٌ

لا يهمّ أن تُكتَب بطريقة سينية، لا تروق لمَنْ يحمل هوى صادي، ما يهمّ أكثر من ذلك هو أن تكتب لمجرّد شُعُورِكَ أنكَ بحاجة إلى الكتابة. هذه أوّل إحداثيات الكتابة.

كَتَبَ هذه الكلمات على أول صفحة من صحيفة جورنال اليومية، التي كان قد انتهى من قراءة صفحتها الرئيسة قبل أن يتعرّف على صورته في مرآته الجدارية، وهو يُحدِّث نفسَهُ عن آخر شُعُور له، كما اعتاد كل يوم، ليكسر طَوْق المَلَل في داخله. حدج ببشرته، بدت خشنة، حاول أن يجزَّ عشب ذقنه، لكن اخضرارها راق له، مَدّ يده على ماكنة حلاقته السوداء، تحسّس موسَها، وهو يمطط لسانه داخل فمِهِ، تنقلُ داخلَ صورته المعكوسة في المرآة، بيجامته المخطّطة، سرَّته المُطلّة من خلال نافذة في فانيلته، شَعر صدرِه الأشيب، كلّ هذه العناوين عَدّها أيقوناتٍ ثابتةً لبُلُوغ الكِبَر والعَوَز معاً. لم يرغبْ في أن يكون أصغر ممّا هو عليه. عامل الزمن لم يكن يُشكِّل أيّ مشكلة لديه. فقضاءُ نصف عمره تحت الأرض كان قد بَلَغَ به غاية التّوحّد.

نورُ غرفته الشاحب يجعلُ أشياء غرفته باهتة، وبملامح نصف مَرئية، طلاؤها الداكن يعطي للغرفة جواً كئيباً. مضتْ عليه سنتان داخل الغرفة، بعضُ علب الطعام الجاهز مفتوحةٌ ومبعثرةٌ بشكل فوضوي، الصُّحُف تأخذ

المساحةَ الأكبر من المكان. كانت كلّها بعنوان واحد، بينما كان الجوّ العام للغرفة يضوع برائحة أعقاب السجائر، العيشُ بمثل هذه الطريقة يبعثُ على الغثيان، هذا ما أخبرتْه به أختُهُ التي تعوَّدتْ زيارته وهي تُحاول أن تطردَ الهواء القديمَ من نافذة غرفته القابعة في الدور الثاني من الأوتيل، هو ذات الأوتيل الذي انتقل إليه في عامَيْه الأخيرين. يقع الأوتيل في حيٍّ شعبيٍّ معروفٍ لدى أكثر مَنْ ينزلون داخل أوتيلات حيّ الميدان، غير أنه كان محترماً من قِبَل الجميع، ولم يضايقْ أحدٌ أختَهُ في زياراتها الدورية له.

مرّتْ عشرة أيّام على آخر زيارةٍ لها للمكان، كانت تحمل له كل ما يحتاجه من كُتُب وصُحُف وكمّيّة معلّبات تكفيه خُرُوجه من الغرفة، وبطّاريات كان يستخدمها لراديو القيثارة الصغير الذي يمتلكُه، إضافة إلى علب البيرة التي تعوّد على ترتيب الفارغة منها بشكل معماري في زاوية الغرفة، تشبهُ بهيئتها بناية كبيرة، تحتوي على المداخل والشبابيك والأبواب. كان قد اعتاد رؤية العالم من خلال تلك النوافذ الصغيرة، وهو يتخيّل نفسَهُ الساكنَ الوحيدَ داخلَ هذا المبنى.

مرّ عامان عليه داخلَ هذه الغرفة، قبل أن يخرجَ من سرداب، كان قد قضى فيه عشرة سنوات من عمره. مثل هذا السلوك قد يكون غريباً للكل، لكنه كان بالفعل على هذه الحال يعيش في سرداب أسفل البيت حتّى عندما كانت والدتُهُ ما تزال على قيد الحياة.

لم تكن حياته تتجاوز مساحة السرداب. المساحات رغم ضيقها إذا وفّرت الحياة تكون مرغوبةً أكثر من مساحات شاسعة مليئة بالموت. ما يهمّ هو البقاء، حتّى لو كان على حساب مربّع واحد، لا يتجاوز مساحته المتر. غريزةُ البقاء أقوى من أيّ غريزة أخرى. هذا ما فكّر به عند نَقْله من

المستشفى العسكري إثرَ إصابة قَدَمِهِ في الحرب. ما دعا والدتَه إلى مواراته في غرفة السرداب طيلة العشر سنوات الأخيرة. كان يشاهد العالمَ من خلال راديو القيثارة الصغير، يشاهدُهُ بطريقة سماعية، يرسمُ صُور الأخبار والأغاني والبيانات التي أخذ عددُها في تزايد بصوت مذيع واحد طيلة تلك الفترة. إحساسُ الجندي القابع في منزلق دهليزي لا يختلف عن إحساس أيّ فأر، يشاهد العالمَ من ثقب في الجدار. ماذا يمكن أن يكون في غرفة، لا تتجاوز طولَ جسده، إذا حاول أن ينام. الخيالاتُ لا يمكن أن تعيشَ بمساحة خالية من الصور، ولا يمكن خَلْق أيّ صورة في مثل هذه المساحة. كل ما يمكن أن يُكوِّنه من صور محاولاً رَسْمَها داخلَ سقف مُخيّلته، كان ينبثقُ من راديو القيثارة الصغير الملاصق له في صَحْوه ونومه. الأغاني، الأخبار، المذيعون، أصواتهم، هيئاتهم، كلّها كان يتخيّلها على شكل صور. لكن ذلك بدأ يتقلّص مع مُرُور الوقت. حتّى صارت مساحات الصور تتزايدُ على طول الجدران المحيطة به. وبدأت تلك الصور تنضبُ في مُخيّلته المزدحمة حتّى آخرها بصور الحرب. كان يعتصرُ لاوعيه محاولاً استنباط موضوع للكتابة. يحضر أدواته، بؤسه، صوره القديمة، ثمّ يشرع بكتابة كل ما يمكن أن يتخيّله من غير تحديد صنف، أو نوع ما يكتب. ما يهمّه هو أن يكتب. نعم، أن يكتبَ عن الجدرانِ، والحربِ، والراديو، وأختِهِ النحيلةِ، وساقِهِ المجروحةِ، والبياناتِ المتوحّدةِ في ذاته، وآخرِ وجهٍ شاهدَهُ قبل أن يذوبَ في السرداب، حتّى الانتظار حاول أن يكتب عنه.

لا خيارات هناك، الانتظارُ هو آخرُ الحُلُول، يَدُ الله هي وحدَها القادرة على تغيير الأشياء، وإن لم يكن لديه يَدان، فلا تغيير هناك، وما عليه سوى الانتظار.

وفاة والدته هو ما زاد المكان ضيقاً عليه. خياراته كلّها كانت بلون واحد، لون الانتظار كثيراً ما فكَّرَ فيه، لكنه لم يصلْ إلى قناعةِ كونِهِ أسود، قد يكونُ الانتظار بلون أحمر، إذا ما انفرجَ على حبّ، أو بلونٍ أبيض، إذا كان مصحوباً بالسلام في آخره. الألوانُ تختلف فيما بينها حسب ما تفضي اليه. لكنه لم يكنْ يعرف نهايتَهُ، حقيقة، الكلّ بلون الانتظار.

لم يكن أمامَ أخته التي تصغرُهُ بخمس سنوات سوى أن تتسلَّم مهامّ والدتها في كَتْم خبر أخيها الخاتل في سرداب المنزل، إضافةً إلى اعتنائها به، وتلبية متطلّباته. كان أهمّ طَلَب له هو توفير بطّاريات راديو القيثارة. حتّى عطب مصباح السرداب لم يكن يهمّه أكثرَ من مذياعه الصغير.

السنواتُ الأخيرة لم تفرقْ عن سابقتِها، حتّى موت والدته كان بالنسبة إليه بحجم غرفته السردابية، حاول أن يشعرَ بما هو أكثر من ذلك، لكنه لم يستطعْ. يمكن أن يكون الحزنُ أو الفرحُ بحجم المكان، أو أكبرَ منه، وبما أن اعتباراته كانت مَكانيّةَ الحجم، فلم يستطعْ أن يتجاوزَ حزنَهُ على والدته حجم مكانه السردابيّ. لم يكنْ يشبهُ ذلك النوعَ من الرجال المنتشرين بين الطُّرُقات والبيوت والمحلات والباصات والجبهة.

إنه الواحدُ الأوحدُ في تفرُّده المكاني والنَّوْعي بالفعل. كلُّ ما يسمعُهُ كان يُدوِّنه على أوراق، أخذتْ مكانَها على كوميديون خشبيّ صغير، بالقُرب من سريره المحشور في نهاية السرداب، تعلو سريرَهُ لوحةٌ، تحكي عن غُولٍ عظيم، يسحبُ سفينةً وسط البحر في جوٍّ عاصفٍ، ليصلَ بها إلى برّ الأمان، كثيراً ما تخيّل نفسه ذلك الغول، وظلَّ يُبرِّر لنفسه آلاف التبريرات عن معنى السفينة. كان سريرُهُ يقبعُ فوق منضدة جرائد، كان هو مَنْ رتَّبها بهذا الشكل بعد أن امتصَّ حياة كلّ حرف فيها.

لم يكن يتركُ شيئاً من غير قراءته، وكتابة ما يهيم تحتَ سقف مُخيّلته من حصيلة قراءته؛ مقالات، أعمدة، أخبار فنّيّة، قصص، شعر، كلمات متقاطعة،.. إلخ. كان بسُلُوكه هذا عبارة عن حاضنةٍ مَعرفية، لكلّ ما مرَّ عليه بوَعي أو بدون وَعي. صار أنموذجاً للشخصية المُعقَّدة الخائفةِ من الآخرين. يخشى الظُّهُورَ، يشعر أن الناسَ أعداء، عليه الحذرُ منهم، إذ إنهم سيُراقبونه إذا ما ظَهَرَ. هذا الكَمُّ الهائل من العدوانية المُتشخصِن في داخله جَعَلَهُ يخشى الكلّ، إلا أخته. لكنْ، مَنْ سيُصدِّق أنه قبعَ في داخلِ سرداب لمدّة سنوات طوال، مثل هذه المدّة يصعب على أيّ شخص تخيُّلها، لا أن يعيشها. العالم بالخارج عبارة عن غابة، يشعر أن الكل يتربّص ظُهُوره، لينقضّوا عليه. البقاء في هذا المكان الضّيق أأمن له من الخُرُوج. الحياة هنا آمنة. بالتأكيد إنها آمنة ومريحة، خاصة إذا ما كان هناك جرائد وراديو - لا يعلم أنه الراديو الأخير الباقي على قيد البثّ.

محور بقائه يعتمد على كلّ ما يربطُهُ بالعالم الخارجي. أخته، الراديو، الجرائد، حقيقة اتّصاله بالعالم الخارجي تعتمدُ على بقائهم.

كانت دائماً ما تخبرُه أن كلّ شيء سيتغيّر. لكن صور الحرب لم تتبخَّر من ذاكرته. كانت كصور ملتصقة بمادّة صمغية داخل عينَيْه. من الذكريات ما لا يُنتسَى. لم يُصدِّق كل ما كان يقرؤه أو يسمعُه. حتّى كلامها لم يكن يُصدِّق أغلَبَهُ. حتّى عندما أخبرتْه أن الحرب قد انتهتْ، ظلّ متجمّداً في مكانه. لم يتناولْ طعامَه أو جريدتَه التي اعتادتْ هي على إحضارها يومياً. ولم يُكلِّمها، لكنه ظلّ يتأمّل وَلَدَهُ الذي أنجَبَهُ من أخته. أخبرتْهُ أن عليه أن يخرجَ، لكنه تردّد، لم يشأ أن ينصدمَ بكلّ ما كان يتصوّره من حياة. مضتْ عليه عشرة أعوام من غير رؤية الشمس. كيف سيقدرُ أن يستوعبَ أشعّتها.

كان يخشى على ابنِهِ من الظُّهُور، فكّر أنه لا يزال صغيراً، وموضوع ظُهُوره أمام الناس سيُشكِّل عقبة كبيرة أمام أخته التي لن تجد مبرّراً لظُهُور مثل هذا الطفل من غير زوجٍ أمام الناس. حقيقة، فكّر أنه سيكون بأمان، قبل السؤال عن إشكالية تبرير وُجُوده. كان شاحب الوجه، جسدُهُ يشبهُ جسدَ رجل عجوز. كانت أخته عاجزة أمامه وهي تراه في حالة ذُبُوله المستمرّ، ولم تستطعِ أخْذَهُ إلى أيِّ طبيب، لمُعاينته. كلّ ما عليها هو الانتظار. هكذا ربطتْ مصيرَها بمصير ولدِها وأخيها الزوج. خارج إطار الزمن والمكان، تسقطُ كل القوانين. برّرتْ لنفسها كلّ ما هي فيه، من أجل استمرارية بقائها بقُرب أخيها. مصيرُها أصبح مرتبطاً بمصيره الانتظاري. كلماتُها كانت ضعيفة أمام أخيها الزوج، وهي تُحرِّضُهُ على الخُرُوج مُضيفة على كلامها: أن العالم قد تحرّر. كلّ شيء تغيّر؛ العالمُ، الناسُ، البناياتُ، الوُجُوهُ، الثيابُ، الشوارعُ، أعمدةُ الكهرباء، والصُّورُ. أخبرتْهُ أن الشوارع خالية من الصُّور، لم يُصدِّق كلامَها. حاول أن يطرد فكرة الخُرُوج من رأسه. ماذا يمكن أن ينتظرَه في الخارج. الراديو، الصُّحُف كلُّها تُشير إلى أن القادم أسوأ ممّا كان عليه. أخبرَها أنه بمأمن داخل هذا السرداب. لكنْ، لا بد من طريقة ليرى ابنُهما الضوءَ. مزاجيّته أرغمتْ أختَهُ الزوجةَ على الانصياع لإرادته وكلامه. لم يكن عصبيّ المزاج، بقدر ما كان مُرتبكاً في سُلُوكه عند طَلَب أيّ شيء منها. ولم يكنْ أمامها إلا أن تُلبّي طَلَبَاته كلّها. حتّى إنها كادت أن تقتنعَ بفكرته أن العالم لم يتغيّر وهو باقٍ على ما كان عليه. وأن القادمَ سيكون أسوأ ممّا مضى.

كانت الكتابةُ أفضلَ ما يُتقنه، كان يكتب بشراهة. يكتب عن الحربِ، والناسِ، وصُورِ المعارك، ووالدتِهِ، وإصابةِ قَدَمه اليُسرى، وعن ابنه. نعم، عن ابنه الوحيد الشاحب، ابنه غير المنتمي إلى الشمس، ابنه المنتمي

لذاكرة السرداب، ابنه المتوحّد بين أخوَيْن، انعزلا عن باقي العالم في سرداب. كان يكتب عنه. عن مستقبله، عمّا يكونه من غيرِ أيّ ورقة إثبات، تدلّ على وُجُوده في الحياة الرسمية، الحياة المستخدَمة بين الناس. حاول أن يكتبَ ابنه في عالمٍ ورديّ، عالمٍ يليقُ بالأطفال. فكّر أنه يشعر بتوحّده مثله. قد يفكّر بطريقة، لا يمكن هو أن يستوعبها إذا ما بَلَغَ عامَهُ السادس. حاول أن يتخيَّل نفسَهُ الطفلَ الأوحد في الحياة، خاصة أنه لم يرَ غير هذَيْن الأخوَيْن الزوجَيْن، ولم يبلغْ رؤية الباب الخارجي للبيت. إنه لا يملك أيّ تصوّر عمّا يوجد خارج الغرفة. رؤية الباب الخارجي كانت تشبه قطعة نقدية، تسدّ شرايينَهُ، لتقطع وُصُول الدّم إلى قلبِه. أشدّ مخاوفه كانت رؤية ما هناك. تخيَّل أن يكبر ولدُهُما في شُحُوبه ونُحُوله داخل علبة. لم يغادرْ فكرةَ صُنع نُسخةٍ مصغَّرة منه، ليُكملَ ما هو عليه. لم يفكّر أن العيش بمثل هذه الطريقة قد يُنهي حياة ابنِهما، من غير أن يتعرّف على ما يوجدُ في الخارج.

وفي صبيحة يوم شتائيّ، لم يشعرْ هو بمنظره، و لم يسمعْ قطرات المطر التي أخذت تزداد في طَرْقها على زجاج النوافذ الخارجية للبيت، وهو مُنهمك بين الكتابة وسماع آخر الأخبار، وبانتظار أن يحصل على صحيفة جديدة ليومه الشتائيّ الكئيب. كان ابنُه قد تمدَّد فوق كوم الصُّحُف المنزلقة، خطا باتّجاهه، أحسّ أن هناك خَلَلاً ما، مَدّ يَدَهُ إليه، تحسّسه، كان جسدُه مرتخٍ إلى آخره، حاول أن يهزّه. لكنه لم يتحرّك. أحسّ بُرُودته، نَفَخَ بين شَفَتَيْه، كانت شفتاه رقيقَتَيْن باردَتَيْن، أحسّ أن ملامحَ الحياة قد غادرتْهُ، أمسك كفَّيْه الصغيرَتَيْن، قبلهما. رَفَعَ خصلةً من شَعْره، كانت قد انسدلت فوقَ عينَيْه مثل سعفةٍ ذهبية صغيرة. مَدَّدَهُ فوق سريره، لفَّهُ بجريدة. أخبر أختَه الزوجة أنه سيخرجُ. وترك لها ابنهما. بينما ظلّت هي

باهتةً في تلقّي خبرِ وفاة ابنهما. متسمّرة في مكانها بفاهٍ مفتوحٍ متخشّبٍ. وراح يُكمل حياتَهُ في فندق، باشتراط عدم الظُّهُور من الغرفة، متنازلاً عن قيد النَّظَر من الشّبّاك إلى العالم. واستمرّت هي بإحضار الصُّحُف ودزّينات بطّاريات راديو القيثارة.

سيّد المفاتيح

لم أحصلْ على أيّ مفتاح منذ مدّة طويلة، بالعادة لم يكن يمرّ يومان، من دون أن أجد مفتاحاً واحداً، وها أنا، أفتّشُ عن مفتاح، حتّى وإن كان مفتاح كوميديون خشبيّ صغير، لكنني لم أحظَ بواحد منها منذ مدّة طويلة.

حتّى بدأتُ أشعر بخيبة أمل في إيجاد المفاتيح، وظننتُ أن علبَ المفاتيح المرتّبة في خزانتي بدأت تتناقص. كنتُ أدّخر علبَ الأحذية، وأجمعُ مفاتيحي في داخلها، وكانت المفاتيحُ بأحجام وألوان مختلفة. منها ما هو كبيرٌ، يتدلّى من ميداليات، تحتوي على أحرف، ولا بد أن تكون تلك الأحرف أوّل حُرُوف أسامي مالكيها. ومنها ما هو متوسّط الحجم في شكله، يُستخدَم للأبواب الداخلية أو للأقفال، ومنها الصغيرة المتنوّعة في أشكالها وألوانها المُتوزِّعة بين الذهبي والفضّيّ، والبعض منها كان بلَون ذهبيّ فاقع. ولا غَروَ أن هناك مفاتيحَ تشغيل السّيّارات، ومفاتيحَ بَدَتْ أنها أثرية، أكثرَ منها استعمالاً لفَتْح أبواب أو أقفال موصدة، بسبب حجمها الكبير، وهيئتها التي تدلّ على أنها قد صُنعت لتأخذَ مكانها في متحف للأنتيكات.

ومن دون كل المتع والهوايات المختلفة لم أجدْ أجملَ من جَمْع المفاتيح. تلك التي أحببتُ أن يكونَ عددُها بعدد الأقفال التي واجهتُها في حياتي. كنتُ أشعر أني أعيش داخل تلك الأقفال، ولا سبيلَ أمامي سوى

جَمْعِ المفاتيح، لأنطلق إلى حيث أودّ الدُّخُول. الأبواب، القُلُوب، النساء، المُدُن، وحتّى البلدان، كلُّ ما هنالك مُغلَق بأقفال كبيرة، ولا أحتاج لفَتْح تلك الأقفال سوى المفاتيح. أحيانا يُخيّل إليّ أن المفاتيح مكتنزة بالأسرار، ويمكن أن تُدخِلَ صاحبَها التاريخَ من أوسع أبوابه. هذه حكايتي أنا، وهذه مفاتيحي، ومَنْ يريد أن يُكنّيني بسيّد المفاتيح، فلا اعتراض، فالأقفال كلّها ستخرّ ساجدة في يوم ما أمامي. صرتُ أتخيّل قدرتي على قراءة اهتمامات الناس وأمنيّاتهم من على وجوه مفاتيحهم الضائعة. ويروح بي الخيالُ إلى أن أحدَ هذه المفاتيح قد يُوصِلُني إلى الفردوس .. الفردوس الذي قد يكون مفتاح بابه من ضمن تلك المفاتيح التي أرتّبها في علب أحذيتي الفارغة.

كنتُ أطلُّ عليها برقبتي في كلّ يوم، لأطمئنّ عليها، وأزيلَ الغبارَ عنها، وألمّعها، ومن ثمّ، أمدّدها، لتستريحَ هانئة داخل علبها متجاورة مع بعضها البعض، ومن ثمّ، أسحبُ وجهي بهدوء حتّى لا أُوقِظَها. وها أنا اليوم أفتقدُ مفاتيحي التي تركتُها، ولا أعلمُ مَنْ سيزيل الغبارَ عنها من بعدي. وهل سألتقي بها من جديد، في يوما ما؟

الحياةُ عبارة عن سلسلة من التّخلّيات. مرّ عام ونصف العام على مغادرتي لعلب مفاتيحي في طَلَب اللُّجُوء، ورحتُ أبحثُ في بلد آخر عن المفاتيح، لكن المفاتيح هنا قليلة، أقلّ من الصدف. وها أنا أبحثُ بين الأرصفة، والشُّقُوق، والحُفر، وأغطية تصريف المياه، والسلالم التي تقودُني إلى حيث أسكن في المدرسة الدينية. لم أشأ السَّكَنَ في مدرسة دينية، لكن الطعام الجاهز، والمبيتَ من دون دَفْع أيّ فلس، كان يُهوِّن عليّ قبول المكان رغم قتامتِهِ، لأني، قبل ذلك، تنقّلتُ بين غرف الفنادق الرطبة، ولم أستقرّ بواحدة منها. الحياة هنا واسعة، لكنها صغيرة، فما أهمّيّة الحُرّيّة

إنْ كنتُ أعيش بمكان ضيّق، أنا الذي بلا شُغل أو مَشغلة. ماذا يمكن أن يهمّني من الحياة، إن كانت واسعة أو ضيّقة؟! كلّ شيء مجاني هنا مقابل الجُلُوس لاستماع درس دينيّ. ورغم أنني لم أكن أتّعظ بأخلاقيّاتهم، لكن النُّزُول كان ضرورة مشروطة للحفاظ على سَكَني البائس في هذا الفندق الإسلامي المُكوَّن من دَوْرَيْن وسرداب. ولا أعلم حتّى الآن ما الداعي أن تكون الدُّرُوس في السرداب، وحتّى لا أُحرَم من وجبات الطعام الهزيلة التي كنتُ أتلقّاها من دون أيّ جهد منّي، كان ضرورة منّي أن أهبط إلى الدَّرْس، وآخذ مكاني في آخر صُفُوف المُنغمسين في الإرشادات، لأشاهدَ رجلَ الدِّين المُعمَّم وهو يُحرِّك شفَتَيْه، ويمدُّ بُوزَهُ إلى الأمام، ويمطّ الكلمات. بينما كنتُ أضع سمّاعات جهاز الفون، وأستمعُ إلى أغاني فيروز. وأروحُ أسرحُ معها، وأُشنّفُ أذنيّ برخامة صوتها، وأنظرُ إلى بُوز المعمَّم وهو يتقصّد إطالةَ مَدّ نهاية حُرُوف الكلمات بتمططها. كنتُ أشاهدُ رجلِ دينٍ بطَعْم فيروز وقهوة «الكوستا كافيه» في شارع الحمرا. شجّعني هذا الصوت على فَتْح عيني في الصباحات التالية. هذا هو وَضْعي الذي لا أؤمنُ به، ويؤمنُ بي، هذا هو الوَضْعُ الذي أسخرُ منه، ولا أُصدِّق به، سماعُ صوت فيروز أفضلُ من سماع صوت المُتديِّن، الذي لم أستمعْ لصوته ولو لمرّة واحدة. ربّما يشبهُ صوتُهُ صوتَ جاموسة. كان هذا المشهدُ يتكرَّر كل يوم، وأنا أعلم أني خوّاف وجبان، واكتشاف الأصوات الجديدة يؤرقني، ممّا يجعلني أرسم خيالاتٍ لها. لكن هناك ما هو أكثر خوفاً من الخوف ذاته. هو أن تكون أنت، أنت فقط. أخافُ من أن أتبخّرَ وأصيرَ قصّة، أخافُ من أن أتحوّل إلى شيء، لا أرغب فيه، أخافُ أن أظلَّ في هذه البناية من دون أن أجدَ مفتاحاً واحداً.

كنت أُرخي رأسي، وأروحُ أحلمُ بالمفاتيح. كم تمنّيتُ لو أني أملكُ

مفاتيحَ غُرف المدرسة الدينيّة. حتّى أكتشفَ ما في داخلها، وبالأخصّ تلك المكتبة العظيمة التي كنتُ أقضي فيها وقت استرخائي مع الكُتُب، كنتُ ألحظُ الأبواب من دون مفاتيح طوالَ الوقت، كانوا يفتحونها، ومن ثمّ، يرفعون مفاتيحَهَا، وعند هُبُوط المساء، تُغلَق الأبوابُ من غير ملاحظة عملية قَفْل الأبواب، وفَتْحها. إنهم حَذِرُون حتّى من أنفسهم، إنهم يُقفلون حتّى على أحلامِهم، من غير أن يُفكّروا في فَتْحها مرّة ثانية. بدت البنايةُ تئنّ من الدُّرُوس الدينيّة. كنتُ أهربُ من هُرُوبي إلى المكتبة بقراءة الكُتُب، ورغم أن الكُتُبَ كانت أكثرُها دينيّة، لكنّ ما يهمّ أنني كنتُ أقرأ، أن أقرأ من هنا أم من هناك، لا يهمّ، كانت قراءتي غاية هُرُوبي من فكرةِ تَرْك مفاتيحي في مكان بعيد، لا أستطيعُ العودة إليه، وأعاودُ البحث من جديد عن مفاتيح أخرى بغية جَمْعِها أو تجربَتِها على أقفال، لم أُجرِّبْ واحدةً منها إلى الآن.

كنتُ أتفحّص الرُّفُوفَ الممتلئة بالمجلّدات، بعضُها كان مرصوصاً داخل علب من الورق المُقوَّى، والبعضُ الآخر كان النايلون يرصُّهُ بطريقة سالفانية. تخيَّلتُ لو أني المسؤول عن المكتبة، ماذا يمكن أن أفعلَ بها؟ العديدُ من هذه المجلّدات زائدةٌ عن الحاجة، يمكن أن أتصرّف بمبالغ بَيْعِها لشراء علب البيرة أو العَرَق المستكي. أستغفرُ اللهَ، بوّابة تفكيري تحتاجُ إلى مفتاح يُقفلها من الداخل، حتّى لا تهربَ مثل هذه الأفكار إلى خارجه، ويتمّ تكفيري بشكل سهل، كما تعوَّدتُ وسمعتُ عمّنْ تمّ تكفيرهم من قبلي. الأيّام تمرّ متجلّطة، بطيئة، مقيتة، وأنا بين غرفتي العلوية والدَّرْسِ البائسِ، والبحثِ في الشوارع عن المفاتيح، من دون أيّ أملٍ في إيجاد مفتاحٍ واحد.

مرّنتُ نفسي على البحث الدائم عن المفاتيح، والطعام الرديء، وتحمُّل ساعاتِ الدَّرْس البطيئة، بمصاحبة عقار الاستماع إلى فيروز. يصعبُ عليّ أن أصلَ إلى مقام الجدّيّةِ، ويصعب أيضاً مساءلة نفسي. كنتُ

شخصيةً مشحونةً بطاقة سلبيّة كبيرة، من دون مُلحقات أو قطع غيار أخرى، أستبدلها. كم تمنّيتُ لو أن هناك مَنْ يستبدل بعيني عيناً أخرى، علّني أشاهد الحياةَ بألوان مختلفة عن ألوانها التي أراها بها، أو أن هناك مَنْ يستبدل بذاكرتي المعطوبة ذاكرةً أخرى، علّني أنسى ما كنتُ عليه، وأتحوّل إلى شيءٍ آخر. قد أبحثُ عن شيء آخر غير المفاتيح. يظنّ البعض وهم يمدّون رؤوسَهم نحوي، باحثين في نشارة تفاصيلي، بأنني متوحّد في ذاتي، مساكين، أنظر إليهم نظرةَ شفقة دائمة. لا يعلمون أنني سيّد المفاتيح. ومن مراسيم طقس ذلك السّيّد الذي هو أنا الذوبانُ في حُلم الأقفال، على أمل فَتْحها. كنتُ أجرِّبُ أولى مهمّاتي في تجربة مفاتيحي على الأقفال مهملاً بذلك مظهري، أعجبني ورؤية العالم من ثقب الباب، وأنا داخلَ سحابة سوداء كثيفة، حتّى أختارَ لمفاتيحي ماركاتٍ عالميةً مسجّلةً من صُنع مخيّلتي، وانا أنقشُها بإبرة من معدن صلبٍ على جُذُوعها المختلفة في طولها وسماكتها.

جلستُ وتنفّستُ، كتمتُ زفيري. ومَدَدتُ ساقيَّ كلتَيْهما على كرسيّ بثلاثة أرجل، كان يقبعُ في زاوية محشورة بين طاولة القراءة ورُفُوف خشبية، كانت تغصّ بالكُتُب وبمجلّدات مختلفة العناوين. خلعتُ حذائي، ورحتُ أجلُكُ قَدَمي الشمال باليُمنى، وأنا أتابعُ قراءة العناوين الموجودة في المكتبة، التي بدتْ أنها تُلامسُ سقفَ البناية من الداخل. وشَغَلَني مشهدُ أمين المكتبة وهو يضعُ نظّارة بعَدَسَتَيْن سميكَتَيْن، تنزلقُ لأسفل منخرَيْه، لا أعرف كيف كان يُثبتها بهذه الطريقة. وهو يجمعُ الأوراقُ في سلّة مهملات مُغلّفة بكيس نايلون أسود أسفل مكتبه الخشبي.

بعدها شعرتُ بحاجتي لإفراغ مثانتي المُمتلئة، لَمْلَمْتُ مصارينَ أفكاري

حول المكتبة، وتوجّهتُ إلى حمّامات البناية في الدَّوْر الأول. وراقبتُ كيف أني مليء بالدِّفء، من خلال بخار بولي المتصاعد، بدا لي شعوراً مليئاً بالطمأنينة عندما أشاهدُ دفء داخلي. وأنا أرسم دوائرَ، ومثلّثاتٍ، وأشكالَ هندسيةً داخل التواليت. تذكّرتُ حواري مع صديقة لي، كانت على دراية بهوايتي المفتاحيّة. حول الاختلاف بين الرجل والمرأة، وهي تدافعُ بكلّ ملامحها وأدواتها عن أحقّيّة المساواة بين المرأة والرجل، محاولةً أخذ رأيي حول ذلك. ولم يكنْ رأيي مختلفاً عن رأيها، سوى أني أستطيع أن أتبوّل على نفسي حين أعقفُ شيئي باتّجاهي، بينما هي لا تسطيع ذلك، وستظل مُطَرْطِشَةً مياهها هنا وهناك، من دون انضباط، أو تناسق، في تكرار الوحدة النظامية للبول.

نكت خرطومي باسترخاء تامّ، ثمّ لَمْلَمْتُهُ، محاولاً إسدال الستارة عليه، والرُّجُوع إلى المكتبة لإكمال قراءة العناوين. لا أعرفُ ما الداعي لإحصاء العناوين وقراءتها، كان من الأجدر أن أقرأ أيّ شيء آخر بَدَلَ هذا السُّلُوك غير المُعنون، الكُتُب هي الكُتُب، وكل ما هو موجود في تلك المكتبة متشابهٌ في مضمونه رغمَ اختلاف العناوين. أدرتُ صنبور المياه، وحَدَثَ ما لم أكن أتوقّعه. كان هناك مفتاحٌ يقبعُ أسفلَ الصّنبور، لا بد أنه سَقَطَ من جيب أحدهم. كم تمنّيتُ أن يكونَ هذا المفتاحُ هو مفتاحَ باب المكتبة، وسَقَطَ سهواً من جيب أمينها، عندما كان يضبط محزمه أسفل كرشه العتيد هنا. تناولتُ المفتاحَ بسرعة، وحشرتُهُ بهدوء في قاع جيبي، شعرتُ أني مُرتبكٌ، بحثتُ عن شيء أبصقُهُ، شيء من عنديّاتي، لم يكن هناك شيءٌ، تنفّستُ، فتحتُ باب الحمّام، كان السّلّم يقعُ بالقرب من الحمّام، تناولتُهُ بقَدَمي حتّى ارتقيتُ إلى غرفتي. كنتُ مثلَ مَنْ وَجَدَ كنزاً عظيماً. أوصدتُ بابَ الغرفة، إنه أولُ مفتاح ألتقطُهُ بعد مدّة طويلة، أخرجتُ المفتاحَ من

جيبي، دعكتُهُ، فكّرتُ أن أنتظرَ إلى أن ينامَ كلّ من في المدرسة الدينيّة، وتُغلقُ الأبوابَ، ومن ثمّ بعدها أنزلَ لأجرِّبَ مفتاحي على الأبواب.

كان النهارُ في منتصفه، يبدو أنها بدايةُ عهد مفاتيحي الجديد، وقد تنهالُ المفاتيحُ عليّ مرّة أخرى، وأجهّز علب أحذيّةٍ، لتغفو داخلَها. بدأتُ أسرحُ في عالم الأحلام من جديد، نام المفتاحُ في راحة يدي، أُغلقُها تارةً، وأفتحُها تارةً، أفتحُها ... أُغلقُها، راقبتُ خُطُوطَ يدي، حاولتُ أن أقرأها، شاهدتُ كيف أخذتْ راحتي شكل أثر المفتاح. تمدّدتُ على سريري الحديديّ، واضعاً مفتاحي داخل يدي التي اختبأتْ في جيبي.

حاولتُ أن أغفوَ، لم أستطعْ، شعرتُ أن سحابةً من القلق تزخُّ فوق رأسي، هبطتُ من سريري متّجهاً نحو النافذة المُطلّة على سوق شعبيّ، يقعُ في الطرف الثاني من الشارع المقابل للبناية الدينيّة التي أنزلُ فيها، ألصقتُ وجهي بالزجاج، أطلقتُ زفيراً، وكأني أتنفّس للمرّة الأولى. هل يمكنني رؤيةُ الخارج من هنا؟ وكيف يمكنني أن أدخلَ إليه، من غير مفتاح؟

شعرتُ أن الوقتَ يمرّ ببطء، عقربُ الدقائق يلسعُ عقربَ ساعاتِهِ، بشكلٍ بطيء. لم أشأ أن أغفوَ، لكني غفوتُ. كانت إغماءةً، وليست إغفاءةً. صحوتُ على صوت سُقُوط المفتاح من يدي على الأرض. التقطتُهُ بسرعة، نظرتُ إلى الساعة، كان الوقت قد تجاوز الساعة العاشرة مساءً، في هذا الوقت تكون كل الأبواب قد أُوصِدَتْ، إلا الباب الخارجي للبناية. فهناك مَنْ تعوّدوا الخُرُوجَ من ساكني المدرسة، ليعودوا بعد منتصف الليل.

فتحتُ باب الغرفة، وهبطتُ على السّلّم، ومن دون أن أتردّد، قصدتُ المكتبة، وكأني مُتيقّن من أن المفتاحَ هو مفتاحُ المكتبة. وما إنْ أدرتُ المفتاحَ داخلَ أكرة الباب، حتّى خَفَقَ قلبي بانفراجِهِ أمامي. وأول ما قصدتُهُ

كان مجلّداً كبيراً، لا أودّ ذِكْرَ عُنوانه، رحتُ أنقلُه على شكل عشرة أجزاء منفردة، كوَّمتُها في شارع ضيّق مُظلم، يقعُ بجوار البناية، وبعد أن اكتمل عدد أجزاء المجلّد، استأجرتُ سيّارة أجرة، ونقلتُ الكُتُب لصاحب مكتبة، تقعُ على بُعد شارعَيْن من المدرسة الدينيّة، كان يتأخّر لمنتصف الليل قبل أن يُغلِقَ أبوابَ مكتبته. ولم يتردّد صاحبُ المكتبة في شرائها منّي بسعر، لم أكن أهتمّ إن كان هو ذات سعر المجلّد أو أقلّ من ذلك، ما يهمّ أنني في تلك الليلة ابتعتُ زجاجاتِ العَرَق المستكي، ونقلتُها إلى غرفتي في المدرسة الدينية، من دون أن يُلاحِظَ أحدٌ ذلك، ورتّبتُها بشكل مَكتبي أسفل سريري الحديديّ. وتسامرتُ حينَها مع إحدى الزجاجات برفقة المفتاح.

حتّى جاءت يدُ أمين المكتبة على كتفي، كاسراً قفلَ حُلمي من غير مفتاح، ليُخبرني أنه حان وقت صلاة المغرب، وعليّ أن أتوجّه إلى الحمّامات لأداء الوضوء، وبعدها إلى مصلّى المدرسة الدينية لإقامة الصلاة. نهضتُ من مكاني، واتّجهتُ إلى الحمّامات، من دون أي اعتراضٍ منّي، على أمل أن أجدَ مفتاح المكتبة قرب صنبور المياه.

ديكٌ ..

مَنْ كان يتوقّع في يوم ما أن تختفي كلُّ الدِّيَكَة؟ وأبقى أنا الديك الأخير الذي كان يتوجّبُ عليه إيقاظ أهل حارة باب الشيخ. مَنْ كان يتخيَّلُ أن يقدِرَ ديكٌ واحدٌ تلقيحَ كل هذا الكَمّ الهائل من الدجاجات؟ كنتُ أُنهَكَ إلى درجة الإعياء، وأتمنّى لو أن الأرض تبتلعني، لتبصُقَني من الطرف الآخر لها، علَّني أستريح من مجانية الصياح والتلقيح، في آن واحد، لكن ذلك لم يحدث أبداً.

ما فائدة أن أكون ديكاً وأنا ألثغ حتّى في صياحي؟ لقد جاء في التقرير المقدَّم إلى منظّمة رعاية الحيوان في الأمم المتحدة، أن الدِّيَكَة اختفوا من حارة باب الشيخ،، ولا وجود سوى لديك يَلثغ، وفي اليوم التالي، وصلتْ لجان التفتيش بسيّارات مصفّحة صفراء، رُسم عليها رأسُ ديك، بعُرف طويل ومُنتصب، يرتدون برّات صفراء، تشبه برّات رجال الحريق، وأخذوا يبحثون في أقنان الدجاج المتوزِّعة في حدائق وسطوح بُيُوت الحارة، علَّهم يعثرون على سبب واحد، يرشدُهم إلى اختفاء الدُّيُوك، لكنهم لم يعثروا على ديك سواي، ما دعا منظّمة رعاية الحيوان لإعلان الإنذار (ج)، وهو أقصى حالات الإنذار، وأخطرها، واستنفرت الحُكُومةُ كلَّ أجهزتها الأمنية للبحث عن الدِّيَكَة، ومَعرفة إذا ما كانت هناك جهة معادية خطّطت لاختفاء كلِّ هذا الكَمّ الهائل منها، لأن تلك الجهات ما انفكّتْ من تخطيطها

وما انفكَكْنا من الاقتناع بأن الكلّ يتآمر علينا في المنطقة. خاصة من تلك الحارات المجاورة لنا. في الواقع، قد تكون هذه الحجَّة مُقنعةً للجميع، الجميع الذين ينظرون بنظرة عوراء غير شموليّة. وراحوا يتجادلون حول المؤامرة التي تُحاك ضدّهم، واستذكروا كلّ المكائد والعداوات القديمة التي حصلتْ فيما بين سكّان حارة باب الشيخ وسكّان الحارات المجاورة لها، وأخذ الجدال مَأخذَهُ بين ناقم ومُصرّح من على شاشات التلفزة، وكان هناك مَنْ يرعى هذه الجدالات والاتّهمات، وتناسوا موضوع الدُّيُوك التي اختفتْ، والدجاجات التي ظلّتْ تندبُ حظّها داخل أقنانها، ولم يكن بوُسعي إفهامهنّ ما يجري، بسبب لساني الألثغ، فكنّ يُعانينَ في فَهْمِهِنّ لي، حتّى أنا كنتُ تائهاً بصياحي، فساعة أتخيّله نباحاً، وفي أخرى أتأكّد من أنني ديك، عندما أرى ريشي الملوّن، وألمس تاجي العُرفي، وأصم أذنيّ عند صياحي، لأظلّ على ما أنا عليه، مجرّد ديك، أحياناً الأصوات لا تهمّ، ما يهمّ أنني بصورة ديك، لكنني كنتُ أتلقّى الصنادلَ من أبناء الحارة، بسبب صياحي الذي كان يشبهُ نباحَ كلب، وكنتُ أرتّب ريشاتي حسب تسلسُلِها اللَّوْني المعتاد بعد تلقّي الصنادل، حتّى قال أحدُهم؛ لا يهمّ إن كان ينبحُ أو يصيحُ، ما يهمّ أنه يُوقِظُنا صباحاً، وأنه الديك الأخيرُ الباقي في الحارة، والمُحافظ الأوحد على دجاجاتنا وشرفهنّ، وهو وحده مَنْ يصدّ اعتداءات دُيُوك الحارات المجاورة، والحفاظ عليه يعني الحفاظ على باقي النَّسْل وامتداده، شعرتُ عندها أنهم يحاولون الحفاظ على ما يمكن أن ينقرضَ، لذا تعوّد أهل الحارة بعد ذلك على صوتي، رغم نظراتهم الشّزرة التي كنتُ أستشعرُها منهم، ورحتُ أوقظهم كل صباح غير آبه لنباحي أو صياحي، ما يهمّ أنهم كانوا يستيقظون. وراحت الدجاجات تتودّد لي، على أمل تلقيحي لهنّ، والظَّفَر بدُيُوك أخرى لتعويض فَقْدهِنّ الذي عجزتْ

لجانُ التفتيش وأجهزة الدولة من العُثُور عليهم، أو على رائحة ذروقهم. كان من الصعب تخيُّل حارتنا من غير دُيُوك بعد أن كانت هي المُتصدِّرة بتصدريهم، حتّى إن البعض أراد تسميتها بحارة الدُّيُوك. ولا أستبعدُ أن تكونَ هناك مؤامرةً من كثرة اللقاءات التي عُرِضَتْ من على شاشة التلفاز، فيما يخصّ اختفاء دُيُوكنا. مَنْ كان يظنُّ في يوم ما أن أُصبح الواحد الأوحد المُتفرّد بتلقيح الدجاجات. ورغم تلقيحي المستمرّ لهنّ، إلا أنّ جهدي ذَهَبَ سُدى، فلم تضع الدجاجاتُ أيَّ بيضةٍ، وسمعتُ من إحداهنّ وهي تنبسُ لي؛ أن بعض الدجاجات غادرنَ الحارة، للبحث عن دُيُوكٍ، بأعناق طويلة، بحجّة السَّعْي لإنتاج البيض، واستمرار النَّسْل، وإنتاج ذات نوعية هذه الدُّيُوك، التي كانت لهم عداوات مع دُيُوكنا المختفين، فيما مضى.

بالتأكيد، إنهم رحلوا، لم يكنْ لهم خيار آخر، ولم يتردّدوا لحظةً في توديع هذه الحارة، شعرتُ بحزن شديد، لعدم إخباري برحيلهم، أفهم أنهم لم يحصلْ لهم شرفُ تحديد مواقفهم، فراحوا يثبتونها في مواقف أخرى، وحاولوا قَطْعَ الحبلِ السّرّيّ بينهم وبين الحارة، منهم مَنْ نفقت روحُهُ في معارك مع دِيَكَة من حارات أخرى، ومنهم مَنْ حاول أن يصل إلى حارات بعيدة، لكنهم لم يبلغوها، وآخرون لا يزالون يسلخون الملح من سباخ ريشهم، في مكاناتٍ، لم أصلْ إليها من قبلُ، والبعضُ الآخر اعتزلوا كونهم دِيَكَة، وارتضوا أن يمدّوا خيالات الخبل، ليكونوا أيّ شيء آخر، لمجرّد أن يعيشوا بسلام. عمدتُ أن أتكتّم على مثل هذه الأخبار، حتّى لا أُقلِقَ دجاجاتِ وأهلِ الحارة أكثرَ من قلقِهِم. بعضُ المواقف تحتاجُ أن نبلعها حتّى ننعمَ بسلام، لكن صورة الدُّيُوك ذات الأعناق الطويلة لم تغادرْ مخيّلتي، ولم أستطعْ بَلْعَهَا، وهم يركبون دجاجاتِ حارتنا، وحتُ أفكّر في إمكانية رجوع الدِّيَكَة، لكنْ، كيف يمكن ذلك وحتّى لجان التفتيش لم تعثرْ على

ديك واحد إلى الآن؟! لم أشأ أن تلاحظَ الدجاجات شُحُوب تاجي العُرفي، وحافظتُ على رباطة جأشي أمامهنّ، ولمّعتُ تاجي العُرفي، ورحتُ أروي لهنّ قصّة بلساني الألثغ، حول الديك الذي تحوّل إلى دودة، بعد أن كان يملكُ عُرفاً طويلاً ورأساً دقيقاً ومنقاراً مُحدودباً، وريشاً ملوّناً، وكيف صار دودة، وهو بأشدّ الفرح لتحوُّله هذا، ليتخلّصَ من ملاحقة أطفال الزقاق خلفه ونتف ريشاته التي لم يبقَ منها شيء.

كنتُ أعلم أن دجاجاتي لم يفهمنَ أيّ شيء من قصّتي التي رويتُها لهنّ، لكنهنّ جامَلْنَني في إنصاتهنّ لي. فتركتُهنّ، والتقطتُ حبّة قمح، بالتأكيد، إنها سَقطَتْ من منقار طائر مَرَّ من هنا. ثمّ اعتليتُ حافةَ درابزون سطح بيت مختار محلّتنا، في محاولةٍ، لأصيحَ مُعلناً عن بداية نهار جديد، بينما كان الشارعُ يخلو من المارّة، حلَّقتُ بمخيّلتي وأنا أتذكّر كيف كانت محلّتنا في هذا الوقت تصخبُ بصياح الدِّيَكَة، وكأنها مباراة تحدٍّ، لإثبات أيّ ديكٍ، يصلحُ أن يتزعّمَ البقيّة، من خلال صياحه ومدى عُمق صوته، وهو يصلُ إلى أقصى البُيُوت الواقعة عند أطراف الحارة.

جفلتُ من خيالي وأنا أشاهد كيف تُوزَّع نثار خُيُوط أشعّة الشمس على الأبنية المواجهة لي، وهي تنفلتُ من بين درابزونات حافات السُّطُوح، لتصنعَ لوحةً زخرفيةً كبيرةً من الظّلّ والضوء على البنايات، تشبهُ سجّادةً كبيرةً مزخرفةً. ثمّ شاهدتُ ظلّي كيف يبدو كبيراً على واجهة البنايات. كان كلّ شيء أكبرَ ممّا أبدو عليه، وراقَ لي شكلي المتضخّم، فنفشتُ ريشي، وراح ذيلي ينتصبُ من تلقاء نفسه، ليصنعَ منّي شكلاً جديداً بالأسود والأبيض، ثمّ شاهدتني وأنا أمشي متبختراً مثل الطاووس. كنتُ أشاهد كل ما أقوم به على واجهة البنايات بشكل أكبر ممّا أنا عليه، كان

شُعُوراً جديداً، لم أمارسْه من قبلُ. ثمّ فكّرتُ من الممكن جداً أن أحصلَ على بُطُولة فيلم، باعتباري النوع الأخير المتبقّي من صنفي، وأن أمثّل دور الديك الأخير في فيلم، قد ينالُ شهرةً عالميةً، مثل الساموراي الأخير، أو آخر رجال الموهيكانز، أو أيّ شيء آخر، يكون الأخير صفته المتفرّد بها. مثل آخر دُيُوك الحارة، ولم لا؟! بما أني آخرها والمحافظُ على شرف دجاجاتها، والمسؤولُ عن استيقاظ كلّ أهل الحارة، لمَ لا أكون بطل فيلم آخر الدُّيُوك؟!

قدحتُ زناد تفكيري حول فكرة الفيلم، واحتدم الدّم في تاجي العُرفيّ، ولمع، وأنا أتخيّل نفسي أمام الكاميرا في أهمّ فيلم، يُجسِّد سلالةً، قد تنقرضُ، ولا يعودُ لوُجُودها أثرٌ في حارة باب الشيخ. فكّرتُ أنّ الدِّيَكَة المختفين لو شاهدوني سيرجعون إلى أقنانهم القديمة بالتأكيد، وسيطلعون على سُطُوح المباني، ليصيحوا كما تعوّدوا. أن تكون ديكاً هو أصعب ما يمكن أن تتخيّله، ولا يمكنُ الاعتزال في يوم ما من كونكَ ديكاً، بالتأكيد كان يجب أن أتحمّل مسؤولية لمّ شَمْل دُيُوكنا، ومَنْ يدري، قد يكون لي نصبٌ تذكاري في يوم ما عند باب الحارة؟! أغلقتُ عيني في محاولةٍ منّي لتخيّل دوري في الفيلم، ومن ثمّة في رَسْم غيمة مُخيّلاتيّة، ينطّ منها تمثالي البرونزيّ، بينما يطوف الدُّيُوك حولي، وأنا دواليك في سَرْد أحلامي، أيقظَني صندلٌ، أطاح بريش ذيلي الملوَّن من مكانه، رافقَهُ صوتُ مؤذّن المسجدِ المُلاصقِ لبيت المختار، وهو يؤنّبني، لأنني لم أوقظه صباحاً، ليؤذّن صلاةَ الفجر. وبهذا، راحتْ صلاتُهُ عليه، وأنا فقدتُ ذيلي كلّه، وتلاشتْ أحلامي في تأدية بُطُولة فيلم آخر دُيُوك الحارة.

نقرة السلمان

واحد ..

ثلاثة..

سبعة ..

حسابُ الدّوامات الرمليّة، أخذ حيِّزاً منه، وشَغَلَهُ عن الكُلّ في عَدِّها، بينما كان يجلس على كومة صُخُور أحد الجدران المُتهدِّمة. اقتربتُ، لاحظتُ تحريرَ شَفَتَيْه وزَمِّهما، كانت الأرقامُ شبه مَسموعة، كان يهمسُ لنفسه، يفتحُ عينَيْه على مصراعَيْهما، ويلتقط الدّوامات بطريقة حسابية مثل مَنْ يؤدّي طقساً تعبّدياً بكلّ خُشُوع، وهو ينطُّ بعينَيْه من مكانٍ إلى آخر، وكأنه يتنبّأ بمكان الدّوامة الرملية قبل وُجُودها في المكان.

قرفصتُ فوقَ بقايا جدارٍ آخر، راقَ لي أن أتابعَهُ، وأتفحّصَ وَضْعَهُ. قبلَ دقائق كان يختلفُ عن وَضْعِهِ هذا عند أول دُخُولنا لنقرة السلمان، وعند نُزُوله من الباص الذي نقلنا من مدينة السماوة إلى نقرة السلمان راح يركض، ثمّ اتّخذ مكاناً له، وبدأ بالعَدّ.

مَرّ أحدُ الأشخاص بالقُرب منه، ابتسمَ له، غنّى: (عد وانة عد ونشوف ياهو اكثر هموم). نَظَرَ إليه، بادلَهُ ابتسامتَهُ، ثمّ رَجَعَ لحساب الدّوامات. لم أعرفْ ما يعني ذلك، ربمّا قد يكون سُلُوكاً قديماً، كانوا يتفاهمون عليه

فيما بينهم من خلاله، كشفرة سرّيّة، لفَهْم الأشياء. بعضُ الأمور لم أكنْ أعي معناها، لكني كنتُ أسجّلُ كلّ ما أشاهدُهُ.

اثنا عشر .. ثلاثة عشر ..

(ألفريد سمعان). كان يترأّس مجموعةً من رفاقه، كانوا يقفون على حافة بئر، لم يعد يؤدّي وظيفته بعد الآن، لأنه انطمسَ بالصُّخُور، وصار خالياً من المياه التي كانت تملؤه في السابق.

كان يشرحُ أول عملية هُرُوب من نقرة السلمان، وهو يشير إلى داخل البئر. مضيفاً على كلامه: أنه كان مُلازِماً أوّل في الجيش العراقي. قَبَعَ ليلةً كاملةً هنا، وهو لا يزال يشير إلى داخل البئر.

عرفتُ فيما بعد، أنه كان يقصُّ حكايةَ هُرُوب أحدِهم من سجنِ نقرة السلمان.

لم يكنْ هناك أيّ مجال للهُرُوب، فالنُّسُور والذئاب ستلتقطُه عند اجتيازه هذه المسافة حتّى وإن استطاع الهرب من داخل السجن.

وتحدّث «حسين فالح» عن قصّة سيروان الفتى الكردي، الذي نجا من الموت، وقال في إحدى ليالي عام ١٩٨٨ جاء عمّي إلى خيمتنا، وقال:

عثرتُ على فتى كرديّ، اسمه «سيروان»، حيث تمكّن هذا الصبيّ من الهرب من مقبرة جماعيّة، كانت قد أُعدّت لإعدام بعض العوائل الكرديّة من الرجال والنساء، وهذا الطفلُ الهاربُ من هذه المجزرة هو ما دعا الكلاب تنبحُ عند وُصُوله إلى الخيمة، فخرجنا لمعرفة سبب نباح الكلاب، وكانت المفاجأةُ عندما شاهدناه، وهو في العاشرة من عمره يرتدي زيّاً كردياً،

مُغطّى بالدماء، ومصاب بطَلْق ناريّ في كتفه، وجُرُوح أخرى في أنحاء جسده، وكان خائفا ومرعوباً، فقُمنا بخَلْعِ ملابسِهِ الكرديّة عنه، وأحرقْناها، لأن السلطات لو علمتْ به لَقَتَلَتْهُ، وقَتَلَتْنَا، وعالجناهُ بالطّبّ الشعبيّ، لأننا كنا في الصحراء، ولا تتوفّر لدينا رعاية طبّيّة أو مستوصف. وعرفنا أنه من (كلار)، وأخفيناهُ حتّى استطعْنا إعادتَهُ إلى قريته فيما بعد.

هناك العديدُ من القصص المتيبّسة، البعضُ استطاعَ أن يرويها، وهناك البعض الآخر الذي لم يُروَ إلى الآن.

في السجن، يقفُ الزمنُ، وتتجمّد السُّنُونُ. الحياةُ داخل المربّع تختلفُ عن أيّ حياة في أيّ شكل هندسي آخر. الأعوامُ داخل أربعة أضلاع كافرة.

كانوا ينتشرون على أساس ذكرياتهم، مثل كائنات من فراغ، تبحث عن ذكرياتها، باعتبارها هوية.

منهم مَن اتّكأ على جدار، يستذكر صديقٌ له، كان قد وَقَفَ معه بذات المكان، ولا يعلمُ الآن عنه أيّ شيء. ومنهم مَنْ راحَ يبحثُ عن ذكريات، خطّها بقطعة حديدية ظنّاً منه، أن ذكراه لا تزال على الجدران رغم أن الجدران كانت مُتهدِّمة، لكنهم حفظوا المكانات، بشكل جيّد.

في أقصى سجن نقرة السلمان من ناحيته الجنوبيّة، كانت هناك بعض صُور النُّزلاء، أو السُّجناء، كانت قد عُلِّقَتْ على الجدار. راحَ البعضُ يبحثُ عن ذكرياتهم في الصُّور. بعض الذكريات قد تكون مَطمورةً، لكن الصُّور تنفضُ سراديب الذكريات. كانت الصُّور مَطبوعة بأحجام كبيرة، وبشكل واضح، تجمَّعَ الكُلّ حولها. راحَ بعضهم يضرب كفاً بكفٍ، وآخرون بدتْ دُمُوعهم واضحة، وهم يتذكّرون أصدقاء قد رحلوا. وآخرون ترنّحوا وهم يشاهدون أنفسَهم بالأسود والأبيض.

أن تُحتجَزَ في أقصى الصحراء، بين جُدران كِلْسيّةٍ لمجرّد اعتناق فكْر، لا يوافق مَنْ يترأّسون هَرَمَ السلطة، هو ذروة قَتْل الوعي والتهميش. قد تُقتَل أو تعتلي مشنقة، لأنك لا تحبّ ألوانهم، أو أنك لا ترتدي ذات نوعية البِدَلِ التي يرتدونها، أو أن لهجتَكَ في نُطق الأحرف تختلفُ عن طريقةِ نُطقهم. أو أنك لا تستمعُ إلى مُطربيهم. آلافُ الأسباب هنا تدعو إلى قتلِكَ لمجرّد الاختلاف.

لم يسرقوا شيئاً من الزمن، لكنهم سُرقوا من أنفسهم، وتمّ إيداعهم هنا تحت سماء بيضاء وأرض مِلْحِيّة. لم يفكّروا أن يتخلّوا عن مبادِئِهم في أيّ متاهة.

أشار بعضهم إلى صورة مظفّر النوّاب، وهو يقف مع مجموعة من السجناء، كان يرتدي بيجامة مخطّطة. بينما صاح رجلٌ في عقدِهِ السادس، أن مظّفر كان يقبعُ في قاووش رَقْم (٣). أكّد شخصٌ آخر كلامَهُ، وهو يشيرُ إلى مكان القاووش.

ستّة عشر ..

رَقْم الدوامة ....

ابتسم رجل معقل وهو يسمع الرَّقْم. سألتُهُ عن سرّ عَدّ الدّوامات الرمليّة. أخبرني أن بعضَ نُزلاء السجن تعوّدوا على قَتْل أوقات فراغهم، وأضاف؛ لا تستغرب الفعلَ، بعضُهم كان يقضي النهارَ بطُوله في عَدّ الدّوامات.

كانوا يعلمون أنهم يموتون ببطءٍ شديد، داخلَ هذه التكوينات الصخريّة القاسية. إنهم يحملون ركامَ الذكريات. طَلَبَ الرجلُ المعقل اسمي، سألتُهُ

عن السبب، مَدّ يده إلى كيس، كان يحمله معه من النايلون الأسود. أخرج كتاباً. كانت مجموعة قصصية بقلمه، كَتَبَ لي إهداءَه على الكتاب، ثمّ مضى.

ثلاثةُ شُيُوخ يُردّدون أغنيّةَ الريل وحمد، بالقُرب منهم كان يجلسُ شخصٌ كبيرٌ في السّنّ، وَضَعَ رأسَهُ بين قَدَمَيْه، ميرتُهُ من حواف شعره الأبيض. كان يغنّي البنفسج بصوت مبحوح. حاولتُ أن أتأكّد أنه مظفّر النوّاب من الأشخاص الواقفين بالقُرب منه، ثمّ التفتَ، لكنه كان قد اختفى. ورحتُ أبحث عنه. لم أميّز سوى بيجامته المخطّطة وشعره الأشيب، بحثتُ هنا .. هناك. أيكون مجرّد خيال بشكل صوريّ، ظهرتْ بهذا الشكل؟ كم وددْتُ لو كان هنا يفتّش عن ذكرياته مع البقيّة. وهو يكتبُ على الجدار: يالرايح للشعب خذني .. وبنار المعركة ذبني .. برُكبتي دين.. اريد اوفيه من أعوام المضت منّي..

سبعة عشر ...

رَقْم الدوامة ..

لاحظتُ بعض الذكرياتِ المكتوبةِ على حواشي الجُدران. كانت تحمل تواريخَ قديمةً. من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٦٣. قال البعض إنهم وجدوا الذكريات التي خطُّوها بقِطَع من الحجر في مكانها لا تزال شاخصةً. بينما بعضُ نُزلاء قاووش رَقْم (٦). لا يزالون يبحثون عن ذكرياتهم في داخله. وظلّتْ أمّ فرات تقتفي أثر إخوتها السجناء بين الصور والجدران الحجريّة، علّها تعثر على رائحتهم، أو أي شيء آخر يخصّهم حتّى تُقبّله قبل نومها في كل ليلة.

آلافُ الأحلام كانت هنا، كانت أحلاماً بطَعْم الملح، أحلاماً كلسيّة،

مرسومة بأصابع ناشفة، كم حاول البعضُ أن يبلِّلَها من ريقه، حتّى يرسم وُجُوهاً، كاد أن ينسى ملامحَها. هنا حتّى الوُجُوه بدتْ ناشفةً.

يُغنّون، يكتبون، يتجادلون، يحسبون الدوامات، يخمّسون أعقاب السجائر. فيما بينهم. حاولوا خَلْق حياة. أحلامهم نيئة، وُجُوههم مصفرّة تشبهُ الرمال. كل ما كان هنا رَحَل. لكن الجدران لا تزال تحمل أحلامَهم المَنسيّة.

تسعة عشر ...

رَقْم الدّوامة ..

وهو لا يزال مستمراً بعد الدّوامات ..

دوامات .. دوامات. وعريان السّيّد خلف يحاول أن يُشعِلَ سيجارته متعثّراً ببعض الأحجار، وهو بطريقه إلى قاووشه محاولاً أن يستعيدَ بعضاً من ذاكرته هنا. كان أنيقاً في مظهره، حيث اعتاد أن يظهر دائماً بمظهرٍ أنيق، لكنه اليوم كان لا يبالي أين يضعُ قَدَمَهُ أو يدوسُ. هناك ما يشغلُ فكره.

كان يبحثُ بين الجدران ... يبحثُ عن شيء، قال إنه تَرَكَهُ منذ خمسين عاماً. يبحثُ بطريقةٍ دقيقةٍ. لم أرهُ بمثل هذا الموقف من قبلُ، وهو الراكز بكلّ ايماءاته وطريقة كلامه.

حاولتُ أن أتابعَه، تركتُ مكاني، ثمّ قفزتُ على درجات مدخل القاووش، أراقبُهُ، كان يهمسُ للجدار، يدُه ترتجف، أنفاسُه سريعة. أشعلَ سيجارة جديدة، من عقب سيجاره المنتهي. لم ينتبهُ لخطواته. أرضيّة القاووش كانت مزدحمة بأحجار، تختلف في حجمها.

علَّه يبحث عن ذكرى. بالتأكيد، إنها ذكرى مثل باقي ذكريات نزلاء نقرة السلمان.

حكَّ ظَهره بالجدار الصخريّ. تأفَّف، أكملَ شُربَ سيجارته، خَرَطَ للأرض، يحكُّ ظهرَه بالجدار، يقتفي بُرُودة الجدار بظَهره. ثمّ أحنى رأسه بين كتفَيْه، وبكى.

اقتربُ منه أحد أصدقائه، سألَه عن سبب بُكائه، أشار بيده إلىٰ مسمار صدئٍ وسط الجدار، استفهم صاحبه عن المسمار؟ وهو يسأله عن أهمّيّة مثل هذا المسمار الصدئ.

أخبرَه أن أول ما قام به عند دُخُوله السجن، هو هذا المسمار، حيث ثبّته وسط الجدار، حتّى يُعلّق عليه ثيابه. أخبره أنه يحمل عَرَقَ ياقات قمصانه. وهو الآن يُعلّق عليه ذكرياته، بدل قمصانه القديمة.

إنه لا يزال هنا في المكان ذاته، لكنه اليوم يبدو صدئاً، مَحنيَ الظَّهر، إنه مسمارٌ كهلٌ، مرّ عليه أكثر من خمسين عاماً، وهو لا يزال بمكانه.

ثمّ جاءت صيحةٌ من خلف القاووش هزّت المكانَ، ركضَ الكُلّ من حيث انطلقتْ الصرخة.

قال أحدُهم: لا تهرعوا، إنها الدّوامة الرابعة والعشرون.

إنه يضحك ..

لماذا يحدث لي هذا كله؟ لمَ هذا الضحك كله؟ مَنْ منكم يجيد الضحك مثلي؟ مَنْ منكم يستطيعُ أن يضحكَ لعدّة أيّام من دون انقطاع؟ مَنْ منكم يُضحكني فوق ضحكي بنكتة؟ منذ وُلدتُ وأنا أضحك، وإلى الآن وأنا أضحك، أكتب إليكم وأنا أضحك، ماتت أمّي وأنا أضحك.

لم أنسَ نظرتها إلى الآن، أنا متأكد أنّها غاضبة، نعم، إنها غاضبة منّي إلى يوم القيامة. لا أزال أتذكّر كيف كانت تلفظ أنفاسَها الأخيرة، بينما كنتُ أضحك، ولم تدمع عيناي قط. حاولتُ أن ألملم أطراف فمي، وأزمّه بقوّة، لكن ضحكي كان يرجُّ المكان، كان الكلّ ينظر إليّ باحتقار، الناس والجيران، وأبي.. أبي الذي تعوَّد أن يبصقَ في وجهي، كنتُ دائماً أشعر أن وجهي بالنسبة إلى أبي عبارة عن مبوَلةٍ من كُثر البصاق. كم تمنّيتُ لو كان ضحكي مصحوباً بدُمُوعٍ عند وفاة والدتي، كانت أمنيّة واضحة على وجهها قبل أن ترحل، لكنني أخطأتُ القراءة. ولم يتوانَ أبي في البُصاق على وجهي عند دُخُوله وخُرُوجه من المنزل بعد وفاة والدتي، حتّى إنه نسي في إحدى المرّات أن يبصقَ في وجهي، فذكّرتُهُ في اليوم التالي أن يبصقَ بصقَتَيْن. ولم يتوانَ في ذلك، وطَلَبَ منّي أن أذكّره كلمّا نسي. فهززتُ رأسي، من دون أن أُكلِّمه، لأنني كنتُ أضحك.

لم يكنْ لي أيّ اعتبار، الكلّ لا يهتمّ بي، الكلّ لم يكنْ يبالي، تعوّدوا

على ضحكي، في الأفراح أو المآتم، في الشارع، في المنزل، كنتُ أضحك باستمرار، وكان البعض يستثمرونني في ترويج النكات البائخة، ومنهم مَنْ قال بدافع السخرية كم كان يتمنّى لو أن باستطاعته أن يستعيرَ ضحكي، أو حتّى أن أضحكَ له. كنتُ أضحك للآخرين بالمجان. وبدون أيّ طَلَب.

جهدتُ كثيراً في محاولة السيطرة على وجهي الذي تصلّب بسبب الضحك. كنتُ أراجع عدّة أطبّاء في آنٍ واحد، وبدأتُ أُصاب بجُنُون الارتياب في عيادة طبيب الأعصاب، لأن عضلات وجهي كانت تحتاج أن ترجع إلى ما كانت عليه، بعد أن أخذت شكلاً واحداً، كنتُ دائماً مبتسماً، حتّى عند نومي، ولم أكنْ أُسيطر على الطعام عندما كان يفلتُ من فمي، وفي الوقت ذاته، كنتُ أراجعُ طبيبَ الجلديّة، بسبب الثآليل التي بدأتْ تزداد في وجهي، في البداية كنتُ أعدّها حَبَّ الشباب، لكنْ، فيما بعد، تبيَّن أنها بسبب بُصاق أبي المستمرّ، لأنه لم يتركْ عادَتَهُ في البُصاق، صارتْ مثل المُتلازمة التي لا بد منها في سُلُوكه اليومي، مرحباً، أبي .... تفوووووو، تصبح على خير، أبي ... تفوووووو.

حتّى إنيّ في إحدى المرّات، قلتُ مرحباً، تفوووووو. ولم أكنْ ألومُهُ على عادته هذه، عندما اتخذ قرار البُصاق على وجهي إلى يوم مماته، بسبب ضحكي عندما فارقتْ والدتي الحياة، ولم يكن يقتنع بكلامي عندما أخبرتُه بأنني لم أسيطرْ على ذلك، هههههههههه.

الكلّ كان ينظر إليّ على أنني شخص تافه ... تافه، لأنني أضحك، كنتُ أعمل بجَمْع علب المشروبات الغازيّة، وعلب البيرة الفارغة من الشوارع، لكنني كنتُ أملكُ مزاجَ إله. وأنا أفضِّل علب البيرة على أنواع العلب الأخرى، ليس لأنني أهواها، بل لأنها أكبر، وحجمها الكبير يعني زيادة

الوزن، كنتُ أجمعها في أكياس الجنفاص الكبيرة، ثمّ أفرشها على الرصيف المقابل لمنزلنا، حيث أكرشُها بقوّة، لتصبح بحجم أصغر مع حفاظها على وزنها. كنتُ أضحكُ، وأقول لهم غير مبال برأيهم بي، إنه سيأتي يوم، لا يضحك به غيري، ورغم أنني لم أكنْ متأكداً إن كان هناك مثل هذا اليوم، لكنني كنتُ أغيظُهم بمثل هذه الكلمات، فيسكتون.

بعد مدّة من الزمن، أخذت الثآليلُ تنتشرُ في وجهي، حتّى إن أكبرَها صار بحجم أنفي، كان شعوراً غريباً أن يكون لي أنفان، البعضُ أوعز السببَ إلى علب البيرة التي أجمعُها، كما كانوا يُخبرونني من قبل؛ أن جَمْعَ علب البيرة حرامٌ، الأغبياءُ لم يُدركوا أن وزنها أكثر من وزن باقي العلب، مساكين لم يشمّوا رائحة بُصاق أبي المليئة بالنيكوتين، وهو يتزحلق على وجهي. ما يهمّ أن أبي كان يبتسم وأنا كنتُ أضحك. رغم أنني كنتُ أعرف، أن بُصاق أبي كان يحمل لعنة، تسبّبتْ لي بتلك الثآليل.

لم يستطعْ طبيبُ الجِلْدية أن يتدارك نُمُوّ ثآليلي، وعندما شككتُ في مقدرته على شفائي، راجعتُ أطبّاءَ آخرين، لكن الجميع عجزوا عن تدارُك نُمُوّها. ولم يسألني أبي عن سببها، ولم يمتنع عن عادته، إلى أن استبطأتُه في أحد الأيّام وهو لا يزال في غرفته، كان بالعادة يصحو مبكراً، وبعدها يذهب إلى المقهى للجُلُوس مع أصدقائه المتقاعدين، لكنْ، في ذلك اليوم كان قد تأخّر، وعندما دخلتُ غرفته، كان مسجّى على الأرض، حينها عرفتُ أن أبي فارق الحياة، وأن ثآليلي سوف تختفي، وبالفعل بعد أيّام من وفاة أبي أخذت تلك الثآليل تختفي تدريجياً. لكنْ، كم تمنيّتُ لو أنها لم تختف، لأن حجم فمي كان قد زاد اتّساعاً عمّا كان عليه، وصار ضحكي يسمعُه حتّى الجيران.

كنتُ مشلولاً بالضحك، وصرتُ أكره نفسي وضحكي، في آنٍ واحد. كان البعض من الجيران والأصدقاء يستفزّونني، ويتقصّدون تداوُل النكات أمامي، حتّى يعلو ضحكي، دون أيّ سيطرة منّي. بالنسبة لهم، كانوا غير مُدركين لشَلَلي، لذلك كانوا يضحكون، وأنا أتألم رغم ضحكي.

بدأتُ أشعرُ بالغربة بعد رحيل أبي، أعترفُ أن وجهي، صار أفضلَ ممّا كان عليه، وتخلّصتُ من الثآليل، لكنني أشتاقُه، وأشتاقُ بُصاقَهُ. مجرّد شُغله حيّزٍ ما في البيت كان أفضل من أن أبقى وحدي.

دخلتُ غرفته في يوم ما، بعد وفاته، نظرتُ إلى مكانه، حيث كان يجلس، وإلى مكان والدتي، لكني تخيَّلتُ شكلها، وهي ناقمةٌ عليّ حتّى الآن، فضحكتُ، يا إلهي، حاولتُ أن أسيطرَ على فمي، فازداد ضحكي، نظرتُ إلى الكرام فون، كان يقعُ بالقُرب من سرير أبي، حيث كان يحب أن يضعَهُ قرب الكوميديون المليء بالأسطوانات.

سحبتُ إحداها من كيس ورقيّ قديم، كان قد رُسم عليه صورة لأمّ كلثوم، أتذكّر أبي كان مُولعاً بها، لقمَّتُ الأسطوانة بهدوء، كما كان يحبّ أن يفعل، ثمّ دَسَستُ إبرة الكرام فون على بَدَن الأسطوانة، ورحتُ أضحكُ، يا إلهي، هههههههه.

لم أفهمْ أيّ كلمة أو لحن، كان ضحكي عالٍ جداً، إلى درجة أن الجيران تجمّعوا أمام البيت، وحطّموا الزجاج، وكسروا الباب الخارجي، ودخلوا بالجملة. كان الكلّ يضعون أياديهم على فمي، محاولين إسكاتي، لكن جسدي كان يهتزُّ من الضحك، والأسطوانةُ لا تزال تدور، وأنا لا أزال أهتزّ، قال أحدُهم إنه يضحك ... أو يموت. عندها انقسم الناس من الأصدقاء

والجيران إلى فريقَيْن، منهم مَنْ قال يجب أن يستمرّ بضحكه، لكنْ، ليس هنا، عليه أن ينتقلَ إلى أيّ مكان آخر حتّى يضحكَ فيه. والقسم الآخر، اقترح التّخلّص منّي، وأضاف بعضهم بأنني حتّى اذا انتقلتُ إلى مكان آخر، سأُضايقُ سكّان المكان، وأزعجهم بضحكي. عندها فكّرتُ باستخدام كاتمِ الضحك، لكني لم أستطعْ أن أخبرَهم بذلك، لأنهم كانوا يضغطون على فمي بقوّة، ومنهم مَنْ دسَّ يَدَهُ، لتصلَ إلى معدتي، ما جعلني غير قادر على الضحك. وتمنّيتُ لو أن هناك بالوعةً، تُفتح على الجهة الأخرى من الأرض، لأنزلق فيها.

شعرتُ أنني أقف على حافة الوُقُوع، وأن مثل هذا القرار قد يودي بحياتي. كان الكل قد اختلفوا بين بقائي أو نَفْيي. إلا أن هناك مَنْ قال: اكراماً لذكرى والده، يجب علينا عدم قَتْله، ونَفْيه إلى أيّ مكانٍ آخر .. أيّ مكان، لا نستطيعُ أن نسمعَ به ضحكه. وبالفعل تمّ نَفْيي على إثر هذا الكلام إلى مقلع الزبالة الذي يقعُ في أحد أطراف الحيّ الذي أسكُنُه. وتمّ ذلك بالفعل. ولم يكن هناك مَنْ يستطع سماع ضحكي، رغم أني كنتُ أتقصّد هذه المرّة أن أضحكَ بصوت عال.

ولم يثبطْ عزيمةَ ضحكي مثل هذا النفي، لأنني وجدتُ ضالّتي في هذا المقلع، وفي ستّة أيّام، كنتُ قد أكملتُ صنيعتي، وصار لي عرش من كوم النفايات، وجمهور خاصّ داخل مقلع الزبالة، يأتمرون بإمرتي، وأفضّ نزاعاتهم التي دائماً ما تكون حول بدلة عسكريّة، أو حذاء. رقّيتُ على عرشي ساهباً، وقدحتُ زنادَ تفكيري وأنا أحدِّثهم عن أن الزبل غنيّ جداً بالمعاني، التي لا تخطرُ على بال أحد، أخبرتُهم أن التاريخ يتوقّف هنا، لأن الزبلَ لا يعنيه الماضي ولا المستقبل. قيمة الزبل في ذاته، هنا

يمتزجُ التاريخُ بالزبل، أخبرتُهم هذا وأنا أقود انتظارَهم أمام سيّارة زبل، تدلق أمعاءَها وسط المقلع، ووضعتُ لهم لوائحَ الإرشادات، وسَنَنْتُ مجموعةً من القوانين التي لا يجبُ على أحد أن يتجاوزَها، وكنتُ أمنعُ أيَّ شخص يقتربُ من علب البيرة، لا، بل حتّى باقي العلب الخاصة بالمشروبات الغازيّة، ولم يكن بمقدور أيّ شخص أن يلتقطَهَا، لأنني كنتُ أضحك بصوت عالٍ لمجرّد اقترابهم منها، ما دَفَعَهُم أن ينبشوا تلال الزبل البعيدة عنّي، حتّى لا يسمعُوا قهقهتي. وصرتُ أبيعُ الخردة والعلب، وأنشأتُ مملكةً من الزبل ... مملكةً لا يمكن أن يرأسَ شعبَها غيري، في بادئ الأمر كنتُ أظنّ أنني سأشتاقُ إلى بيت أبي، الذي لم أرَهُ منذ مدّة طويلة، ولا أعلمُ بعدها مَنْ قَطَنَ البيتَ بعد نَفْيي منه، ومن الحيّ، بشكل عامّ، لكنني صرتُ سيّد الضحك والزبل، بعدما كنتُ سيّد الضحك وحده.

ههههههههههههههههههههههههههههه

ههههههههههههههههههه

هههههههههه

فياجرا ..

شَعَرَ أن للظلام لُزُوجة.

مَدّ إصبعه بغيةَ مَصّه. لكنه تاهَ عن فمه. كان يستعيدُ حياته في مرحاضٍ، يجلس في الظلام، مفتّتاً الخراءَ المتيبّس بقوّة انفلاتِ بَولِهِ في مرحاضٍ عموميّ في منطقة الباب الشرقي، وسط بغداد، وهو يستعيد ذاكرتَهُ، كان قد اتّبع منذ عدّة أسابيع روتيناً معيناً، يقبع أسفل سرير نومه، يسمع زوجته مع صديقه، كان يتميّز غيظاً، في بادئ الأمر وهو يشعر بالبُرُودة، لكنه اعتادَ مثل هذا السُّلُوك فيما بعد، وهو يتعرّق.

وفي يوم ما، التقى صديقه، أخبره كم هو غبيّ، لأنه لم يعلم بوُجُوده، أسفل السرير، ثمّ ضحك ضحكة قوية، ومضى. كان قد استرسلتْ قَدَمَاه في حديثهما مع الطريق، إلى ركن سوق الهرج من طرف الباب الشرقيّ، حيث مركز بيع المنشّطات الجنسيّة، حينذاك سمع حديثَهم، وهم يتهامسون فيما بينهم حول نيّة تغيير نصب الحُرّيّة.

التفتَ إلى النصب في الجانب الآخر من الشارع، كان المتظاهرون يتجمّعون، لبداية يوم تظاهريّ جديد، كما اعتادوا. الحقيقة مثل هذا الأمر شكّل له صدمة، أحسَّ أن هناك مَنْ يتآمر على النصب، هناك مَنْ يريد أن يُشتّت المتظاهرين. بدا سوق الهرج مثل عين نمل، الكلّ يلتقي، الكلّ للتداول، مثل أيّ نملَتَيْن للاستدلال على الطريق.

حاولَ أن يندسّ وسط النمل، ليحتكّ بهم، وهم لا يزالون دواليك مستمرّين في نشر خبر النصب. أخبره أحدُهم، وهو بالكاد يُحاول أن يُفلتَ كتفه الذي انحشر بين اثنَيْن يتهامسان؛ أن النصب الجديد موجودٌ، وسنستعدّ لتبديله بنصب الحُرّيّة.

التقى آخر .. ثمّ آخر .. ثمّ آخر ... كان الكل يُحدِّثُ الكلّ بالخبر نفسه.

لاحظ أن هناك مَنْ يعبر من حديقة الأمة، الواقعة خلف النصب، إلى سوق الهرج، لا بد هناك ما هو أخطر من ذلك، بدا الأمر مريباً، بينما المتظاهرون لا يزالون يتجمّعون عند مدخل جسر الجمهورية، حاملين أعلاماً صغيرة بحجم الكفّ.

بسطاتُ المنشّطات، أعلامٌ صغيرة، همسٌ، هرولةٌ، وُجُوهٌ شاحبة، سماءٌ ملبّدة بالغُيُوم، الكلُّ يحتكّ، الكلُّ يلتفت، كانت هناك متسوّلة تنام قرب بسطة سودانيّ لتصليح الساعات، لم يعبأ بها، شدَّتْه أغلفة الفياجرا المنتشرة على البسطات، ذكّرته بصديقه وهو يرمي ذات الغلاف تحت السرير عندما نام مع زوجته، حينها التقطَه من الأرض، ودَفَعَهُ إلى جيب قميصه.

تحسّس جيبَ قميصه، كان لا يزال غلاف الحبّة فيه. أخرجَه، تفحّص شكله، كان يشبهُ أغلفةَ الحُبُوب المنتشرة أمامه. لا بد أنه اشتراه من هنا. مَنْ يعلم؟! قد يلتقيه الآن، أو بعد حين، وقد يكون هنا أو هنالك مع المتظاهرين.

التفتَ إلى شخص، كان يتجمّع الكلُّ من حوله، أصاخَ بسَمْعِهِ إليه، وهو يسرقُ رَسْم الكلمات من شَفَتَيْه. كان دميمَ الشكل، حليقَ الصدر، بعضُ

الكلمات كان من الصعب سماعها، وبعد حين علم أن عليه أن يتّجه إلى حيث أمرهم، صاحب الصدر الحليق، غير مستوعب انقياده، لاستكشاف ما يهمّون في فعْله.

انزلق مع البعض، بين زنكات بُيُوت قديمة، تقع خلف سوق الباب الشرجي، ليصل إلى بوّابة كراج كبيرة، مثل بوّابات معامل الحيّ الصناعيّ في شارع الشيخ عمر، وبمجرّد أن فتح الباب مع مَنْ يترأّس المجموعة، حتّى أطلّ على نصب أيرٍ كبير الحجم، يصلُ بارتفاعه إلى ذات ارتفاع نصب الحُرّيّة.

وهنا هتف أحدُهم، ياااا عيش، وراح البقية يهتفون من بعده، ياااا عيش، ياااا عيش، كانوا يهتفون بعُيُون دامعة، لم يكن يُميّز بين فَرَحِهم وخوفهم، ثمّ تناوبوا في التقاط صور مع النصب الجديد، الأير الكبير. ومنهم مَنْ راح يحضنُهُ، ويُقبّلُهُ، ومنهم مَن اتخذ زاوية يبكي من شدّة فرحه.

لم يكن يتصوّر أن يرى في يوم من أيّام حياته مثل هذا الأمر، كيف ستكون ردّة الفعل؟ فكّر بهذا الشكل وهو يتّكئ على قطعة حديديّة، كانت تستند على باب الكراج من الداخل.

ومثل قطّ يتمسّح بين سيقان صاحبه، تمسّح هو بباب الكراج محاولاً أن يترك المكان. فتفاجأ بسيّارات حُكُوميّة مظلّلة، هبط منها أشخاص، يحملون أسلحة خفيفة، يتوسّطهم شخصٌ ببدلة رَسْميّة أنيقة، كان يبدو عليه الانتماء إلى تلك الجهة. فَهِمَ هذا عندما خاطب المتجمّعين حول الأير، وهم لا يزالون مُنهمكين بالتقاط الصور. وأخبرهم أن الحُكُومة هي مَنْ حقّقتْ أمانيهم ببناء هذا الصرح، وما عليهم الآن إلا هَدْم نصب الحُرّيّة العتيق واستبداله بهذا النصب الحدثاوي.

ماذا لو كانوا فكّروا بحبّة فياجرا كبيرة. بدل هذه المباشرة في صناعة أير بمثل هذا الحجم، مَنْ يمكن أن يتحمّل هذا كله. خاصة لو وُضع هذا النصب بدل نصب الحُرّيّة المتمركز في قلب بغداد سيُعطي طابعاً تأوّهياً داخل كل مَنْ يمرّ بالقُرب منه، أو مَنْ ينظر إليه من بعيد. ما القَصْدية الخفيّة من عمل هذا. الحقيقة أن الحُكُومة قد تكون مبالغة في مثل هذا العمل، أو قد تكون مرحلة انتقالية لقَصْديّة، لا يمكن التنبّؤ بها الآن، إلا بعد أن يُوضَع النصب بمكانه.

مرّ الوقتُ سريعاً، بينما كان هناك مَنْ يحاول أن يدخل آليّة إلى الكراج، لرَفْع النصب على شاحنة كبيرة. وثمّة مَنْ يحاول أن يُخلي الشارع لمُرُور الشاحنة، وثمّة مَنْ يستعدّ لمثل هذه اللحظة بلهفة وفرح، ومَنْ يتوعّد بضَرْب كل منْ يعارضهم على تهديم نصب الحُرّيّة واستبداله، ومَنْ يقول إنه سيكون مرحلة مهمّة في الانتقال، من مرحلة ما قبل النصب، ومرحلة ما بعد النصب، مثل التقويم الميلاديّ والهجريّ.

ذلك كله كان يحدث أمامه، وهو ينتقل من صورة إلى الأخرى، ومن حَدَث إلى آخر، ومَن وجهٍ إلى وجهٍ. كان يفكّر بعواقب كلّ ما يمكن أن يحصل، وما عساه أن يفعلَ، وهو لم يقدر أن يفعل أيَّ شيء عندما سمع تأوّهات زوجته، وهي تمارس ما تعلّمتْهُ منه مع صديقه العتيد؟ ماذا يمكن أن يفعلَ غير التقاط غلاف حبّة الفياجرا من أسفل السرير؟ ماذا يمكن أن يلتقط من هنا غير بعض الصور والوُجُوه التي لم يرَها من قبلُ؟

لا يمكن تصوُّر ما هو أسوأ، خاصة أن الشوارع لا تزال تمتلئ بالناس، مَنْ يعبأ بأير كبير يتوسّط بغداد غير باعة المنشّطات الجنسيّة ورُوّاد حديقة الأمّة، أيّ مَنظر يمكن أن يتخيّله مَنْ يذهب إلى عمله صباحاً، وهو ينظر إلى

أير كبير بحجم ماموث، مَنْ يفهم أن كل فلسفة النصب ستُغادر؟ مَنْ يفهم ما معنى أن ترى أيراً كبيراً في أول الصباح وأنت تروم الذهاب إلى عملكَ؟

إيقاع الأحداث بدأ يتسارع، حاول أن يتركَ المكان ويتّجه إلى النصب الأصلي، الكل منشغلٌ هنا برَفْع أكبر أير في المنطقة على ظهر الشاحنة، ونقله إلى مكان التحرير. فكّر أن المشاهدة هي أفضل فعْل يحاول أن يقوم به. تجاوز الأزقّة بخطوات واسعة وسريعة، مثل هذا النصب سيكون قبلة للدودكية، وأصحاب بسطات بيع المنشّطات الجنسيّة. لا وَضْع أسوأ ممّا هو عليه، زوجة خائنة، نصب الحُرّيّة على قيد الهدم، وغلاف حبّة فياجرا يقبع في قعر جيب قميصه. أخذت الأزقّة تنفرج عند نهاياتها وصولاً إلى الباب الشرقي، أنفاسه تتسارع، دقّات قلبه أسرع. لاحظ أن هناك مَنْ يتسلّق النصب حاملاً مطرقة كبيرة، وفي الأسفل مَنْ يهتف له بالضربة الأولى، ثمّ توالى الصاعدون حاملي المطارق. ظنّ أن النصب لن يتهدّم بسُهُولة، لكن بعد أوّل ضربة، سَقَطَ جزء كبير منه، ثمّ تولّت البقيّة في تهديمه. كان المتظاهرون يقفون في أماكنهم، من دون أيّ اعتراض، أو أيّ امتعاض. الكلّ كان يشاهد أجزاء النصب وهي تتساقط؛ الفلاحُ، العاملُ، الثورُ، الشعلةُ، الجنديُّ، الطفلُ، الحصانُ، الكلُّ كان يسقط. وما هي إلا لحظات حتّى جاءت الشاحنة الكبيرة تجرّ من خلفها رافعةً، يرتكز نصب الأير الكبير على ظهرها، وهي تشقّ طريقها من بين صُفُوف المتظاهرين. لتضعَ النصب بدل سابقه، ويقف الكل بمظهرٍ صامتٍ، بينما راح أصحاب بسطات المنشّطات الجنسيّة يُوزّعون على الكلّ حبّات الفياجرا، لينتصبوا، ويقوموا بأول طواف لهم حول هذا الصّرْح العظيم، ولم يتردّد هو أيضاً في أخذ حبّة الفياجرا، وراح يطوف حول النصب. وهو يتذكّر آهاتِ زوجته مع صديق.

أشباحُ الكتابة ..

لكنها اشترطتْ عدم رؤيتِهِ لإكمال تعارُفهما بطريقةٍ كتابية.

كان النهار بارداً، هناك عصافيرُ تطير بشكل منخفض من سور المدرسة، اقتربَ منها، أحسَّ بالإنهاك، اتّكأ على السور، لَفَتَ انتباهَه حوارٌ كان قد كُتِبَ عليه، كان حواراً بين اثنَيْن، حواراً من نوعٍ مختلفٍ، حاول أن يُنجِز قراءته، فثبّت عينَيْه العسليَّتَيْن عليه، وراح يمجّ من سيجارته، وينفث دخانها، وهو يقرأ كل ما كتبتْه تلك الفتاة التي لا يعرف أيّ شيء عنها سوى أنها كانت هنا في يوم ما.

كتبتْ:

- أريد حياةً جديدة بلا مبيدات، لأحاول أن أنموَ ببطء من جديد.

لم يعرف الدافع وراء كتابة تلك العبارة، أو أنه أحتاج الوُقُوف أمامها لفترة أطول حتّى يفسّرها كيفما كُتبت، لا كيفما قرأها هو.

تخيَّلها، وهو لا يزال يقف في مكانه، يُفكِّك شيفرات الكلمات، ويتصوّرها متفاجئة في اليوم التالي في أثناء مُرُورها، وهي تشاهد أن هناك مَنْ كَتَبَ أسفل عبارتها، يسألُ عن معنى كلماتها المكتوبة، فتُبادر هي للرّدّ عليه مفسّرة كلامها، ومن ثمّ، استمرّت تلك الحوارات فيما بينهما.

هذا ما حلّله الصُّحُفي عند تسمّره لفترة أمام السور، يشاهد الحوارات

كيف أخذت تتطوّر وتتّسع رقعتَها، وهي تنتقل من مكان إلى مكان آخر، على طول السور.

كان قد تعوّد عند رُجُوعه من عمله في وقت متأخر، أن يتأبّط جريدته، ويتابع كتاباتهما حول سور المدرسة، خاصة أنهما بعد فترة من استمرار الكتابة وانتقالها من مكان إلى آخر، وصلا مرحلةَ الاشتياق للقائهما الأول، ومن غير أن يعلما أن هناك مَنْ يتابعُ حروفهما التي أخذت تُكتَب بخطٍّ أصغر، حتّى إنها لا تكاد تظهر إلا عند التدقيق بها.

راق للصُّحُفي أن يدخل لعبة الحوار، وتتبّع كل ما يكتبانه. واكتشف فيما بعد أن هناك شرطاً متّفقٌ عليه فيما بينهما، لاستمرار حوارهما. وهو عدم رؤيتهما لبعضهما.

هذا الشرط دَفَعَ الصُّحُفي للتفكير بالفتاة، قد تكون تعاني من مشكلة ما، لأنها هي مَن ابتكرت مثل هذا الشرط، تخيَّلها خرساء، لكنه استبعد مثل هذا التخيّل، ثمّ تخيّلها قبيحة، أو أنها تعاني من مشكلة ما، لا تدع لها مساحة للقاء بمُحدّثها الكتابي.

ومن بين مجموعة تخيّلاته، قَفَزَ إلى ذهنه مشهد مديره في العمل، وهو يقف على عتبة مكتبه، يستعجل إكمال تحرير ما تبقّى من أخبار صفحة الحوادث.

فغادر السور مستمعاً لأفكارهما، في عالم آخر، وهو في طريقه إلى الجريدة، محلّلاً استمرارية الكتابة بشرط عدم اللقاء.

كانت الفكرة تشبهُ، إلى حدّ ما، بقاءَك في الجنّة شرط التزامِكَ بعدم أكل التّفّاحة.

بدر الراغب

محرّرُ صفحة الحوادث في جريدة «الشعب»، كان يسكن غرفة في أوتيل ناقع بالقِدَم، يقع وسط حيّ شعبي، بالقرب من خزّان ماء المدينة، وتقابل الأوتيل من الجهة الثانية للشارع، صالة عرض سينمائية قديمة، كانت الناس ترتادها في ما مضى، لكنّها الآن، أصبحت من أكبر مخازن الخشب. لم يُتقن الراغبُ في حياتِهِ إلّا الكتابة، كل ما يقومُ به هو تحرير أخبار الحوادث، لكنه كان يتوق لكتابة حكايةٍ، ولم يشأ أن تكون حكايته مثل بقيّة الحكايات.

في إحدى المرّات تخيَّل نفسَهُ جداراً، وتساءل ماذا سيُكتَب عليه؟ لكنْ، ماذا لو كان فعلاً جداراً؟ يستحضرُ أرواح الكلمات عندما تكون طريّة، ويُحلِّق في رَسْم الخيالات بملامح، تحكي ما يدور في خَلْج كلماته، عند كتابتها.

كان دائماً ما يشعر أنه يشبه خزّان مياه المدينة في وحدته، تخيّل ملاكَيْن يفرّان من الخدمة الإلهية، من غير علْم الله، ليكتبا لقاءَهما الأول على صدر الخزّان، بينما يُطلّ اللهُ بعينٍ باسمة كبيرة من أقصى السماء، يُراقبُ أول ما سيخطّانه.

ثمّ قَدحَتْ في رأسه فكرة متابعة تواصلهما الكتابيّ بشكل جدّيّ، بشرطٍ كان قد فَرَضَهُ على نفسه، وهو الشرط ذاته الذي قرأه في حواريّة الجدار، وهو عدمُ مراقبة أيٍّ منهما، وبهذا سيكون ثالثهما، من غير علْمهما به.

لم يكن يهمّه عمر، أو شكل مَنْ يكتب الحوارَ على سور المدرسة، ما شَغَلَ اهتمامَهُ أكثر من ذلك هو كتابة حكاية .. حكاية انفعالات شخصَيْن، لم يلتقِ أحدهما بالآخر يوماً، ولم يُدركا وُجُود شخص ثالث، يتابعُ كلّ ما يكتبانه.

بالتأكيد، إنه لن يموت همَّاً عند مراقبتِهِ لهما، بل سيكون شاهداً، مثل عين الله المُطلّة على ملائكته، لكتابة نصٍّ دراميٍّ.

أحسّ أنه يستجيبُ لحاجةٍ سَرْديّة. شَعَرَ بانجذابٍ كبيرٍ لمعرفة ما سيحصلُ خلف تلك الكلمات التي قرأ بعضها. فراح برحلة بَحْثية على طول السور مُلبّياً بذلك حاجةً انفعاليةً، يُقاسِمُ أبطالها في لقائهم، ولا يقاسمونه في سَرْده. أسرع يُوزِّع أوراقه بشكل فوضوي لبناء حكاية رشيقة، بخيال لا يسعُ سوى مساحة جدار واحد، وشَبَحَيْن. كان قد مرّ بتجربة كتابية فيما مضى من وَحي خياله، لكنه لم يُكملْها وقتذاك، كان ينتظرُ أن يشهدَ على مثل هذه القصص المستوحاة من الواقع، خاصة أن مثل هذا النمطَ استفزَّه، بما يحيطه من غُمُوض، حول اشتراطية عدم لقاء اثنَيْن، تعارفا على سور مدرسة مهترئة الملامح، آخر ما يمكن أن يتوقّعه، بداية لقائهما على سُورها، بطريقة، لم يتعرّف على ملامحها من قبلُ.

أحسّ أنه الآن مخلوقٌ جديد، لا يدري كيف سيكونه، ولا يعلمُ بما حوله، سوى الورق، الذي فكّر بأكله يوماً، ليكون رجلاً من ورق.

رَسَمَ حُدُود لعبةِ السور، أحسّ أنه ينهمكُ في سَرْد قصّة بكلمات أشخاص آخرين، بعيداً عن رَسْم أيّ ملامح لهم، معتمداً على انفعالات الكلمات، وهو ينتقل من مكان إلى آخر على طول السور، بينما ظلّ يراقب تطوُّر الحديث، ومشاعر بدت واضحة المَلمَس، أخذت مكانها بين الكلمات المكتوبة على طول الحوار.

كان يستقبل بداية كل حوار جديد، بأقلامٍ مختلفة الألوان، الغرضُ منها تبيانُ الكلمات التي بدتْ غير واضحة أو مفهومة، فكَّرَ أنه بمثل هذا السُّلُوك سيُساعد الاثنَيْن على فَهْم أيّ كلمة، قد لا تكون مفهومة لكلَيْهما،

لكن بعض العبارات كانت تستوقفُه لبلاغتها، فيُدوِّنها ويفكّر بكيفية بداية لعبة السَّرْد، ويعود إلى غرفته في الأوتيل القديم، يفرشُ حواراتِ السور المنقولة، ويربط حلقاتها، فيُلقي نظرة، تارة على هذه، وتارة على تلك، يُوزِّعها بشكل مبعثر على أرضيّة الغرفة، ينقل المقاطع الواحد تلو الآخر، ليصلها ببعضها، ويُرتّب إيقاعَ تسارُع الأحداث من أول حرفٍ بينهما، إلى آخر حوار، كان قد نَقَلَهُ على جريدة، محدّداً بعض الكلمات بلونٍ أحمر، باعتبارها منعطفاً مهماً، يمكنه الإسهاب في سَرْده، ويشتغل عليها بتكسير سَرْد أصابعه.

جلس أمام الجدار، حملقَ في أوراقه قبل أن يلمسَها، وقال غير مخاطب أحداً، ربّما كان يوجِّه كلامه إلى الجدار عينِهِ، لكنه قال هذه الكلمات وهو يُومئ برأسه مرّات عدّة.

(عندما يتمّ رَسْم العالم ستأتي الكلمات بحُرّيّتها). ردّد هذه العبارة مراراً وتكراراً.

ثمّ هيكل بناء الحكاية، ويضيف طقساً لكل شخصيّة كيفما يتخيّلها بمحاولة خَلْق تخمين كان قد شكَّل له متاهةً في بادئ الأمر.

لم يشأ أن تكونَ قصّته نزهةً، تتّخذ بها شخصياته منطق الحسّ السليم أو الأعراف السَّرْدية، ثمّ بدأ يكتب تفاصيلَ لعبةِ الحوار، من دون ذِكْر أيّ اسم لهما، لم تكن الأسماء مهمّة له، بقدر ما اهتمّ أن يُكيِّف لقاءً لهما داخل القصّة.

رَسْم الخيالات ..

تخيّل أن تكون الفتاةُ في بداية عقدها الثاني، وهي تكتبُ بأصابع

شَمْعية، وبيدها الأخرى ترفع خصلةَ شَعرٍ، تنسدل على عينها اليُسرى، وتركّز على إعطاء روح لكل حرف تلفظه قبل أن تكتبَهُ بشَفَتَيْن ناعمَتَيْن. وحدّد عمر الشّابّ على نحو مشابه، أو ربمّا أكبر منها قليلاً، لكنّ شاردةً ما طرأتْ إلى ذهنه في كيفية إنهاء القصّة؟

فرغم نهايات القصص التي مرَّتْ عليه، فكّر أن يتركَها مفتوحة النهاية، لأنهما مَنْ سيحدّدان نهايتَهَا، ولن يردعَهُ عاملُ الزمن، إن تعدّى الأمر أكثر من ذلك، فالقصص هي مَنْ تُنهي نفسها، وليس كاتبها.

فكّر بصوت عالٍ: دائماً هناك ما يُكتب ..

لكنه أراد أن يصفَ مشاعر كلّ منهما على حدة.

فكّر، لو أنه لم يُلزِم نفسَهُ، بشرط عدم اللقاء، لكان الآن يقف قرب الجدار، بحجّة انتظار شخص ما، وهو يُراقب من طرف نظّارته الطّبّيّة وجهَ كل منهما، لكنه استبعد هذه الفكرة من رأسه.

خزّان مياه المدينة ..

كانت السماءُ كئيبةً داكنةً، قطراتُ المطر تُبلِّل أوجه البنايات، مضى يومان على كتابة آخر حوار لهما. وها هو اليوم الثالث يُشرفُ على بدايته، من دون إضافة حوار جديد. تأكّد الراغب من ذلك، بعد أن فتّش السورَ، من غير أن يجدَ أيّ حوارٍ جديدٍ لهما.

أخذ يفكّر أن عارضاً ما قد أخّرهما عن الكتابة، ومضى في طريقه إلى الجريدة، لتلافي فيروزيات رئيس تحريره الصباحيّة.

كان عملُهُ يساعد على الإصابة بكآبة دائمة، كم تمنّى لو أنه كان محرّراً

في صفحة ثقافيّة، أو حتّى صفحة المنوّعات، بدل هذا الشؤم المتراكم في داخله، كل الحوادث لم تعدْ تستفزّه مثلما كانت في بداية عمله، لم يعتقدْ في يوم ما أنه سيتعلَّق بسور، يحاولُ بثَّ التمنّيات في نفسه للعُثُور على حوارٍ جديد، يُكمِلُ به إضافة ورقةٍ جديدةٍ إلى قصّته. لم يشعرْ من قبلُ بحاجة للرُّجُوع إلى الغرفة إلا في وقت متأخّر من الليل. شُعُوره بالوحدة المتلازم له كان يقاسمه ذاته، بين جدران غرفته وشرفته المطلّة على المدرسة. لم يكن يلهيه سوى النَّظَر إلى جوقات الطُّيُور وهي تُحلِّقُ حول خزّان مياه المدينة.

كانت بعضُ الطُّيُور تحطُّ على حافة الخزّان من الأعلى، فتُشكِّل نتوءاتٍ واضحةً، تُعكّر بذلك نهاية شكل الخزّان من الأعلى، وتعطي شكلاً، يكسر رتابةَ جدارِهِ الكونكريتي، حتّى ظنَّ أنّ الخزّان يستأنسُ بوُقُوفها عليه.

وما إن انتهى وقتُ عمله، حتّى تأبّط جريدته في محاولة منه للخُرُوج، فاعترضه رئيس تحرير الجريدة بأوداج منتفخة، ليخبرَه، أنه من الضروري الالتزام بمواعيد العمل، وأضاف أنه في الفترة الأخيرة قد تكرّر تأخّره في الحُضُور إلى الجريدة، لكنه استقبل مثل هذا التأنيب بوجنَتَيْن ساخنَتَيْن قليلاً وابتسامة، حاول جاهداً رَسْمها على وجهه وهو يسمع نقداً بنبرة، لم تصبح بأيّ حال من الأحوال عدوانية، ولم يشأ هو الآخر تبرير تأخّره اليومي بمشروعه السَّرْديّ.

انتظرَ إلى أن أكملَ رئيسُ تحريره آخرَ كلماته، المصحوبة برشقات فمه الدوشي، وهو لا يزال مُصمِّماً على ابتسامته، رغم ثِقَلِهَا، ثمّ أضاف على ابتسامته، أنه لن يتأخّر بعد اليوم عن عمله، وفي قرارة نفسه، لم يكن يقصد ما قال، لكنه أراد أن يُنهي مثل هذا الكلام، وتلافي زخّات فم رئيس تحرير الجريدة. ثمّ انطلق بعدَها مسرعاً إلى سور المدرسة.

لم يكن المكان يبعدُ عن الجريدة سوى شارعَيْن، تجاوزهما بخفّة، وهو ينتقل من رصيف إلى آخر، متحاشياً الرشقات التي تُحدثها السّيّارات، وهي تغمسُ عجلاتها وسط ما تبقّى من مياه زخّات مطر الليلة الفائتة.

كلّ شيء هنا يحمل طَعْم القِدَم، ولو أن لهذا المكان مَنْ يشربه، لكان استحقّ امتياز تعتيقه. فكّر بذلك وهو يمرّ من أسفل خزّان مياه المدينة، يشاهد جوقات الطُّيُور المنهزمة، وهي تلفّ خصرَه الكونكريتي السمين، بينما كان يقضي بعضها، استراحة الظهيرة، بين أفارزه لإزالة ما علقَ في ريشها.

كم تمنّى لو أن له منقاراً، أو أيّ أداة أخرى، يسحبُ بها ما علقَ في ذاكرته، ويملأ فراغاتها من جديد، مثلما تنقّي الطيور ريشَها.

تحسّس جيبُ سترته باحثاً عن أقلامه الملوّنة، ثمّ سَحَبَ جريدته من تحت إبطه، وتأكّد من وُجُود ورقات بيضاء، كان قد دسّها وسط الجريدة، لينقل عليها ما سيجدُهُ من حوارٍ مكتوبٍ.

لكنه تفاجأ عند وُصُوله!!

كانت تنتظرُهُ عبارةٌ واحدةٌ هناك.

-(لم أنتظركَ، ولم تتوقّعني، وقد تقاطعَ دربانا في اللحظة التي قُدِّرَ لهما أن يتقاطعا فيها، فأفضيا إلى طريق واحد، لكننا لن نمضي فيه سويّة).

تأزَّمَ عند قراءته لهذه العبارة، التي كُتبتْ بخطّ يد الفتاة، لم يعرف الداعي لكتابة مثل هذا الكلام بعد أن كان كلامهما في الفترة الأخيرة يشي بلقاءٍ قريب.

شكَّل مثلُ هذا الكلامِ صدمةً له.

ثمّ أخذ وقتاً كافياً، لينظر ملياً إلى ما كتبتْ، حاول أن يفكّر بسببٍ وجيهٍ، دَفَعهَا لكتابة مثل هذه الكلمات. المشهد برمّته كئيبٌ، يدفعُهُ إلى إطلاق الزفير، واستعادته بقوّة. مرّت درّاجة هوائية بالقُرب منه، يقودها صبيّ في العاشرة من عمره، كان يشاهده في الأرجاء بين الفينة والأخرى، عند ذهابه إلى عمله. كان الفتى قد لاحظ التصاقه بالسور، تقرّب منه، سأله إن كان أضاع شيئاً ما، لكن الصُّحُفي أجابه بالنفي، ثمّ أردف الفتى عليه قائلاً: إنها كانت هنا قبل قليل، ثمّ أشار بيده إلى نهاية الشارع من الجهة الثانية المقابلة لخزّان المياه.

حَيْرة اللحاق ..

بالتأكيد أن هذا الفتى شاهدها وهي تكتب عبارتها الأخيرة، وشاهد الشّابّ الذي كان يردّ على كتاباتها، وها هو يُغادره، تاركاً إيّاه بين حيرة اللحاق بها، وبين أن يظلّ متأمّلاً ما خلّفتْه عبارتها الأخيرة. هي لا تعرف مَنْ يتابع كلّ ما يكتبانه، ولا تعرف أيّ شيء عن جدار غرفته، المليء بالأوراق الملصقة، ولا تعرف أيّ شيء عن تأيّنه مع الكلمات المكتوبة بأيديهما، ولا عن أحرفهما المصحّحة بأقلامٍ، كان يحملها في جيب سترته.

ماذا كان سيقول لها، لو أنه لحق بها في الطريق ذاتِهِ الذي أشار إليه الفتى، ليتعرّف عليها، وعلى ملامحها التي كان يتخيّلُها من دون أن يراها، فيرسم الكلمات على وجهها، قبل أن تكتبها على السور، ويرى انفعالاتها وسُكُونها، من خلال الكلمات عينها. ماذا كان سيقول لها؟

نَظَرَ إلى الجانب الآخر من الشارع، كان المطعم المجاور للأوتيل يرمي دخانه، شاهد دخان المطعم كيف كان يتركُ أثرَ لونه على الرصيف، التفتَ إلى نهاية الشارع، كان الفتى قد غادر على درّاجته الهوائية، فكّر، ماذا سوف

يكون موقف الشّابّ، لو قرأ هذه الكلمات؟ بالتأكيد، سيجيء بلهفة أكبر من تلك اللهفة التي جاء هو بها للبحث عن حوار.

مَدّ يَدهُ إلى جيب جاكيته، أخرج قَلَمَهُ، ثمّ كَتَبَ ...

«غداً سأعود ثانية مثل كلّ تلك الأيّام التي خَلَتْ، لأتابع بنفسي لعبة الانتظار، علّني أجد تكملتكما في هذا الشارع الذي خلا من كل شيء بعد رحيلكما».

ثمّ اتّجه إلى الأوتيل الذي يقطنُهُ، دَخَلَ غرفته، اتّجه إلى حيث يضع أوراقَهُ البيض فوق الكوميديون الخشبيّ، أخذ ورقةً بيضاءَ، كُتب عليها ..

حَدِّثْنا عن نفسِكَ .. ماذا تكتبُ .. أو تقرأ؟ .. حدِّثْنا عن الشارع الرئيس في روحكَ .. عن سبب وحدتِكَ في الغرفة .. عن خزّان ماء المدينة العتيق .. عن آخر ملاكَيْن، كنتَ تُراقب لقاءهما .. عن سور المدرسة .. عن أياديهم وهي تكتبُ على السور ..

حدِّثنا عن الرجل الوحيد في هذه الغرفة ..

فهرس المحتويات

مَنْ يربطُ شريطَ حذائي .. ٧
عمّي الكيوية ١٣
نملةٌ فارسيةٌ ١٨
عينٌ زجاجيةٌ ٢٥
حذاؤُها الأحمرُ ٣١
عبّاس ترامادول ٤٠
حدائقُ الصمغ ٤٦
رسالةٌ إلى الأرض ٥٢
سردابٌ ٦١
سيّد المفاتيح ٦٩
ديكٌ ٧٧
نقرة السلمان ٨٢
إنه يضحك ٨٩
فياجرا ٩٥
أشباحُ الكتابة ١٠٠

أمضيتُ حياتي في انقطاعٍ مُطلَق عن الناس، لم يكن يعني لي أن أُغمض عيني أو أفتحها، كنت أُتابع أنفاسي ونبض قلبي. ولم أكن أتخيّلُ أيّ شيء، لأنّني نسيتُ الأشكال. المحاربون القدامى عادةً ما ينتهون على هذا الشكل. أصواتُ القصف لا تزال في ذاكرتي. قد أنساها جميعها، لكن ذاكرتي تمتنع عن نسيان شكل الحرب. وبالفعل انتهت الحربُ، وكنتُ متشوّقاً لعودتي إلى بلدتي وزوجتي وطفلي الذي صار شابّاً. كانت زوجتي تبعثُ لي بصُوره داخل ظُرُوف الرسائل التي تبعثُها، كنتُ أراه يكبرُ داخل الصُّور، وعند عودتي، حَدَثَ ما لم أكن أتوقّعه، كانت بلدتي مُشوَّهة بلا إشارات أو فهارس، لم تكن هي ذاتها التي ترعرعتُ فيها، وقضيتُ أجملَ أيّام شبابي بين أروقَتِها، بدا ضوء مصابيحها شاحباً، طُيُورها تختال تحت دانتيلات الظُّلمة، ملامحُ الشوارع ناقصة، ولم أتعرّف عليها. كان الكلّ يتخفّى، وبعض الناس يتغامزون بغير كلام. لم تُخبرني زوجتي برسائلها لي عن هذا التّحوّل في البلدة. لم تُخبرني عن المسلّحين الذين طلبوا منّي إبراز أوراقي الثبوتية عند دُخُولي للبلدة، أخبرتُهم عن الحرب التي ابتلعتْ نصف عمري ونصف أصحابي، لكنهم ضحكوا.

ORT
RIES
BIC
H

ISBN: 978-88-85771-11-6
9 788885 771116
المتوسط